حسين

بين بين

AFET LI

طه حسين

بَيْنَ بَيْنَ

دار العلم للملايين
بيروت

892.78
Ha3924bA
c.1

الطبعة الأولى
بيروت ، تشرين الثاني ١٩٥٢

بين الادب والسياسة
جد وهزل

•

نعم جدّ وأي جد ، لك ما شئت وما لم تشأ ان استطعت ان تظفر بجدٍ أحزم وأصرم وأعظم وأقسى من هذا الجد الذي يلم بالحياة المصرية في هذه الايام فيثير في بعض نواحيها حزناً لا يشبهه حزن ، وفي بعض نواحيها الاخرى سروراً لا يقاس اليه سرور .

نعم وهزلٌ أي هزل ، لك ما شئت وما لم تشأ ان استطعت ان تظفر بهزل ابدع او اروع او أخف على الروح او ادعى الى الضحك او أقدر على التلهية والتسلية من هذا الهزل الذي يلم بالحياة المصرية في هذه الايام فيثير في بعض نواحيها قهقهة وإغراقاً في القهقهة ، ويثير في بعض نواحيها الاخرى بكاء لا يبخل أصحابه بالدموع .

وتعال معي يا سيدي فانظر عن يمين ، ثم انظر عن

شمال واسمع لما يأتيك من هذا الوجه، ثم اسمع لما يبلغك من ذلك الوجه ، ثم حدثني او حدث الناس بما ترى وما تسمع ان استطعت ان تخلص للحديث ، فاني اخشى ان ترى من ملكهم الحزن فتحزن او ترى من ملكهم الضحك فتغرق معهم فيما هم مغرقون فيه .

انظر يا سيدي الى يمين فسترى أصحاب الجاه الرفيع والعز المنيع والسلطان الواسع والصوت البعيد قد رُدّوا الى حياة لو انها برئت من الجاه والعز ، وخلت من سعة السلطان وبعد الصوت ، لكانت على أصحابها شراً ونكراً ، ولكنها امتلأت بالعبر التي جعلتها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وعظة لمن يستطيع ان يتعظ ودرساً لمن يحسن ان يفهم عن الايام ما تُلقي من دروس .

انظر يا سيدي عن يمين فسترى الابراشي باشا كاسف البال ضيق الصدر ، شاحب الوجه ، مقطب الجبين ، مخفوض الرأس ، مقوس الظهر ، مطبق الفم ، معقود اللسان ، وسترى من حوله الغرور وبنات الغرور ، ثم اليقظة وبنات اليقظة وهن يتراقصن ، ويتبادلن فيما بينهن أحاديث عنيفة لينة فيها حزن ويأس ، وفيها سخرية ودعابة ، والرجل بين هؤلاء الراقصات يقظان كالنائم ، ونائم كاليقظان ، قد زلزلت به الارض زلزالاً شديداً ، لم يتصل ، ولم يطل أمده ، ولكن الارض على

ذلك ما زالت تدور به ، وتضطرب من تحته ، حتى أصبح لا يملك قدرة على ان يحقق شيئاً ، او يثبت في نفسه شيئاً او يفكر في شيء ، أو يقدّر شيئاً ، انما هو داخل مأخوذ يرى هؤلاء الراقصات يضطربن من حـــوله بعضهن ينتحبن ويبعثن في الجو نشيجاً وزفيراً ، وبعضهن يضحكن ويبعثن في الجو صياحاً متصلاً ، فيه الرضى وفيه الابتهاج ، وفيه السخر من طغيان الطغاة والاستهزاء بظلم الظالمين ، والاستخفاف بهذه الامال العذاب الكذاب ، التي تملأ الانسان غروراً وجهلاً ، وحمقاً وثقة بالنفس ، واطمئناناً الى الايام ، والرجلُ يرى ولا يحقق ، والرجل يسمع ولا يفهم ، والرجل قد أخذه هذا الذهول حتى إنه ليودّ لو استطاع أن ينهض فيرقص مع هؤلاء الراقصات ، المخزونات ، أو يدور مع هؤلاء الدائرات المبتهجات . ولكنه واهن ، خائر القوى ، منهوك الجسم كما انه منهوك العقل ، قد سكن هو واضطرب من حوله كل شيء ، بل سكن جسمه واضطرب في نفسه وعقله وقلبه وجوفه كل شيء .

ثم انظر يا سيدي وأبعِدِ النظر قليلاً فسترى رجلاً آخر قد تقدمت به السن ، بعض الشيء وأرسلت عـــلى صدره لحيته إرسالاً ودارت على رأسه خرقة بيضاء ، هو جاثم في مكانه يهمّ أن يقول فلا يستطيع أن يقول ، يهم ان يعمل

فلا يستطيع ان يعمل ، يهم ان يفكر فلا يستطيع ان يفكر ، وانما أخذت عليه طرقَ القول والعمل والتفكير أشباحٌ لا تنقطع تمر أمامه متتابعة ، وهو يراها تخرج من مكامنها لا يستطيع لها رداً ، ولا يملك منها مهرباً ، ولا يبلغ لها احصاء ، يرى كأن الارض تمر امامه مراً ، ولا يمر منها جزء إلا انفتح فيه قبر وخرج من هذا القبر شبح او اشباح ، وهو لا يدري ما خطبُ هذه الاشباح التي تطيف به ، وتدور من حوله ، وتنشق له عنها الارض ، وتتفتح له عنها القبور ، وهو يكاد يصيح لو استطاع الصياح ، ويكاد يسأل لو أطاق السؤال ، ولكن هاتفاً يهتف به أرِحْ نفسك من السؤال والصياح ، فانما انت رجل تحب القبور ، وزيارة القبور ، وانت رجل محزون مكدود ، لا تستطيع ان تسعى اليها زائراً ولا عاتباً ، ولا متوسلاً ، ولا مستعطفاً فهي تسعى اليك ، وهي تلمّ بك وتقف عندك وهي تقرأ ما في نفسك ، وتفهم ما في قلبك ، لوكم تحب ان تجيبك الى ما تبتغي وتعينك على ما تريد لولا ان القبور لا تملك للناس نفعاً ولا ضراً ، ولا تغني عنهم من الله شيئاً . لقد ألممت بالقبور إلماماً في اثر إلمام وأطلت عند القبور مقاماً في اثر مقام ، فانظر فهذه القبور تلم بك ، وتقيم عندك ، ولقد وقفت عند القبور فهمهمت ودمدمت ، وزمزمت وتمتمت ،

فاسمع لهذه الاشباح التي تنشق لك عنها القبور ، انها من حولك تهمهم وتدمدم ، وتزمزم وتتمتم ، ولقد ضاعت جهودك عند القبور ، وجهود القبور ضائعة عندك ، لم تحفظ عليك قوتك حين كنت قوياً ، ولم ترد عنك ضعفك حين اصبحت ضعيفاً ، الله وحده هو الذي يحفظ القوة على الاقوياء ، ويرد الضعف عن الضعفاء ، ولكنه قد قضى ألا يحفظ قوة على قوي ، ولا يرد ضعفاً عن ضعيف ، حتى يخلص له قلبه ، ونيته ، وقوله وعمله ، فليتك أخذت من بعض هذا بحظ ، فيغني عنك الان حين لا يغني أحد ، ولا شيء عنك من الله شيئاً . والرجل يرى ، والرجل يسمع ، والرجل لا يحقق ما يرى ولا يفهم ما يسمع ، وإنما هو قلب مضطرب وعقل مختلط ، ونفس مفرقة ، وخواطر مشردة ، وعبرة للمعتبرين ، وعظة للمتعظين .

وأبعد نظرك يا سيدي قليلاً ، فسترى أشباحاً ضئيلة نحيلة شاحبة ذائبة او كالذائبة تذهب وتجيء ، تقول وتعمل ، تتصرف تصرّف الاحياء ، وليست من الحياة في شيء ، إنما هي حياة كالموت ، أو موت قد ترددت فيه انفاس من حياة . وأطِل النظر الى هذه الاشباح الذاهبة الجائية الرائحة الغادية ، فستتبين بعد الجهد والعناء ، أشخاصها ، وستعلم انها اشخاص قوم كان اليهم الحول والطول ، وكان في

ايديهم الحل والعقد ، كانوا وزراء يأمرون وينهون ، يرفعون ويخفضون ، يذلون ويعزون ، يبسطون الرزق لمن يشاءون ، ويكفون الرزق عمن يشاءون ، يقضون بأهوائهم فيما لا ينبغي أن يُقضى فيه ، إلا باحكام الدستور والقانون ، ولكنهم ألغوا الدستور واهدروا القانون ، واتخذوا من اهوائهم وشهواتهم نظما تقوم مقام الدستور والقانون . أنظر اليهم يا سيدي ، أين هم وسلهم ، أو سل عنهم يا سيدي ، ما خطبهم وماذا يصنعون . لقد لفظتهم الارض ونبذهم الناس وانصرف عنهم أشد الناس إلحاحاً عليهم وحباً لهم ، وتهالكاً على تملقهم ، تحدث اليهم يا سيدي ان استطعت ، فلن تسمع منهم إلا ما يصور الضغينة والحقد ، والموجدة والبغض ، واليأس والقنوط ، والتحرق على ما مضى والتشوق الى ما لا سبيل اليه ، وصل الى ضمائرهم ان استطعت الوصول اليها ، فلن ترى فيها ندماً ، ولا املاً ، ولا استغفاراً ، ولا اعتذاراً ولا توبة ولا نزوعاً الى التوبة ، انما هو الحزن اللاذع على نعيم مضى وانتهاز الفرصة وتربص الدوائر وملاطفة الاحلام ، لما قد تتكشف عنه الايام من نعيم تتقطع دونه الاعناق ، وتتمزق دونه القلوب ، وألق نظرة واسعة عريضة يا سيدي الى هذه الاشخاص الذابلة الناحلة التي تدب على الارض دبيب النمل ، لم يدركها الموت المهلك ، ولم يبلغها اليأس

المريح ، وانما هي عاملة جادة ، تملقت اولئك حتى ذهب عنهم السلطان ، وهي تنتهز الفرصة لتتملق هؤلاء ، ما أقبل عليهم السلطان ، تريد ان تملأ بطوناً لا تمتلىء ، وان تفعم جيوباً لا تفعم ، وان تصيب من لذات الحياة ما تبيع في سبيله القلوب والعقول ، والشرف ، والكرامة والضمائر ، والاخلاق . انظر انهم كثيرون كانوا شياطين مردة فأصبحوا اليوم ملائكة اطهاراً ، ينتظرون ان تتيح لهم الظروف خلع أجنحة الملائكة والدخول في أثواب الشياطين . أنظر واسمع ولكني أراك محزوناً أسفاً كئيباً ، قد ضاقت نفسك بما ترى ، وما تسمع ، وقد صغر في نفسك كثير من المعاني والخصال التي لم تكن تحب ان تراها صغيرة ولا حقيرة ولا متضائلة . قد ثقل عليك الجد فلا بأس عليك . أرح نفسك من الجد وتحول الى شمال فانظر واسمع وحدثني عما ترى وما تسمع . وانظر غير بعيد الى التقاليد فسترى منظراً عجباً وستسمع أغاني أقل ما توصف به انها مضطربة مضحكة مسلية لذيذة أشد إثارة للذة وابهاجاً للنفس من أغنية السواقي السبع التي يتغنى بها الشباب في بعض الاحياء الوطنية ، ومن يتغنى السواقي السبع ، ويردد انغامها الحلوة والحانها المشجية اذا لم تتغنّ بها التقاليد . التقاليد ، وما ادراك ما التقاليد ! انظر اليها فلن يثوب نظرك اليك ، ولن ينقضي عجبك

مما ترى .

هذا رجل ضخم فخم ، طويل عريض ، غليظ الوجه واسع الشدقين ، عظيم الانف ، عذب الصوت ، حلو الغناء . يا له من صوت ، ويا له من غناء . استمع ان كنت تحب الطرب ، واعجب ان كنت تريد العجب ، الا ترى الى هذه الاشياء الكثيرة المنتشرة المختلفة المتنوعة التي تضطرب من حوله ، بعضها يرقص ، وبعضها يدور ، بعضها يقفز في الجو وبعضها يثب في الهواء . تبينْ هذه الاشياء ، ان استطعت ان تتبينها وأحط بها إن اتيح لك ان تحيط بها . ان فيها الحي والميت ، ان فيها الصائح والصامت ، ان فيها الغالي والرخيص ، ان فيها المبتذل والنفيس ، هذا ديك يصدح ، وهذه دجاجة تصيح ، وهذه ارنب تعدو ، وهذه أداة تدور ، وهذه حقيبة تمتلىء ، ثم تفرغ ، ثم تمتلىء ، ثم تفرغ . وهذا مصباح قد علّق ، وهو يضطرب اضطراباً ، ويدور حول نفسه دوراناً ، وهذا بساط قد نُشر في الجو ينتظر من يجلس عليه ليطير به الى حيث يريد الله . وهذا نرد يدعو اللاعبين ، وهذا شجر قد اكتسى من خضر الورق ، وآتى من جميل الزهر ، وطيب الثمر ، وهذا مطر ينهمر انهماراً ، وتصبه السماء صباً ، ولكن أحذر ان تدنو منه ، فاني أخشى على رأسك ان يشجّ ، وعلى انفك ان يجدع

وعلى وجهك ان يصيبه أذى ، وعلى ذراعك ان تتحطم ، وعلى ساقك ان تندق ، ان السماء يا سيدي لا تمطر ماء ، ولا عسلاً ولا خلاً ولا زيتاً ، ولكنها تمطر علباً مختلفة الاحجام ، متباينة الاشكال ، قد اختلفت فيما بينها وتنوعت محتوياتها ، ففي هذه « مربة » البرتقال وفي هذه « مربة » السفرجل وفي هذه « مربة » المشمش ، وفي هذه لون من ألوان الحلوى ، وفي هذه فن من فنون الفاكهة ، واحذر هذه الثمرات الغريبة التي لا تكاد تبلغ الارض حتى تتحطم عليها انحطاماً ويخرج منها شراب مختلف الوانه فيه ري للظمأ وفيه تملق للفم ، وفيه حلاوة وعذوبة وقد يؤذي بعض الحلوق أحياناً ، انها زجاجات الشراب يا سيدي عصير العنب ، وعصير البرتقال ، وعصير الليمون . وانظر الى هذه الاقراص التي تدور لا تريد أن تقف ولا تحب ان تسقط ، وانما هي تدور في مكانها وتبعث من حولها روائح غريبة لا تحبها الانوف جميعاً ولكن من النفوس ما تطير من حبها شعاعاً . تبيَّن هذه الاقراص يا سيدي ألم تعرفها بعد ؟ ألم يهدك اليها عبيرها هذا المنكر الغريب كما هدى عمر بن أبي ربيعة الى صاحبته عبيرها ذاك الذي كان يصدر عن خيمتها فيملأ الجو عرفاً وطيباً . انظر الى هذه الاقراص . انها اقراص الجبن يا سيدي ، وأي جبن ما شئت من الوان الجبن . جبن أجنبي وجبن

مصري ، جبن رقيق وجبن غليظ ، جبن خشن وجبن ناعم ، جبن جاف كأنه الحجر ، وجبن رطب يسيل لعابه ويتحلب منه المشّ وتجري فيه فتون من دقيق الحيوان .

وانظر الى هذه الآنية التي تدنو وتنأى وتقرب وتبعد وتصعد في الجو وتهوي نحو الارض داعية الى نفسها مدلة بما فيها ، أتعرفها ؟ أتعرف ما تحتوي من الالوان . انها القشدة ، القشدة التي يبيع فيها بعض العمد نفوسهم بيعاً . انظر يا سيدي الى ما سميت وما لم اسمّ ، والى ما وصفت وما لم أصف . انظر الى الاشياء والاحياء كيف تضطرب وتدور وتأتي هذه الحركات العجيبة الغريبة على صوت هذا المغنى البارع الرقيق الرشيق ، الخفيف الظريف ، الوسيم القسيم ، الذي يتغنى التقاليد ، وجمال التقاليد ، وقدس التقاليد ، وما يجب للتقاليد من حماية ، وما يجب للاخلاق من رعاية ، وما يجب للضمائر من صفاء ، وما يجب للايدي من نقاء ، وما يجب للمناصب من كرامة ، وما يجب لاصحاب المناصب من ارتفاع عن الصغائر ، وتنزه عن الدنيات .

انظر يا سيدي الى يمين فخذ بحظك من ، الحزن وانظر الى شمال فخذ بحظك من السرور ، فلا خير في الحياة اذا لم تكن حزناً وسروراً ، ولذة والماً ، وجداً ولهواً . انظر عن يمين وانظر عن شمال ، ثم انظر امامك الى هذا البلد الحزين

التعس ، الذي يعدو على حقوقه اصحاب الجد ، ويلهو بمنافعه اصحاب اللهو ، وهو يحتمل عدوان أولئك ويحتمل لهو هؤلاء محزوناً حيناً ، مسروراً حيناً آخر ، ساخراً من أولئك وهؤلاء دائماً ، لانه قد بلا من الدهر خيره وشره ، وذاق من الايام حلوها ومرها ، ووثق بان عدل الله قريب ، وبان الحق منتصر مهما يتصل سلطان الباطل ، وبان صرح الجور مندك ، مهما يشيد باضخم الاحجار واصلب الصخور.
ولكن دعنا من فلسفة الاخلاق فما تتسع الحياة لفلسفة الاخلاق وحدثني عن هذه الاشياء التي تضطرب وهذه الاحياء التي تتطاير وتتصايح ، ما خطبها ؟ من أين اقبلت ؟ والى اين تريد أو اين ومتى تحب أن تستقر ؟ زعمت وزارة المعارف انها أقبلت من مدارس وزارة المعارف المنبثة في ارجاء مصر قاصدة الى بيت وزير من وزراء المعارف ، في حي من احياء القاهرة ، أو في قرية من قرى الريف . لا تهز رأسك ، ولا ترفع كتفيك فما في هذا الحديث من شك ، وما في هذا الحديث من ريب ، انهما تقريران نشر اولهما صباح الاحد ، ونشر ثانيهما صباح الثلاثاء ، وزعم ناشرهما انه أخذهما من وزارة المعارف ولم تنكر عليه الوزارة ما زعم . ثم لم ينكر وزير المعارف ذاك ما نسب اليه ، في أول هذين التقريرين وسنرى أينكر ما نسب اليه ، في ثاني هذين التقريرين .

خرجت إذن هذه الاشياء ، وخرجت اذن هذه الاحياء من مدارس الصناعة والزراعة الى بيتي وزير التقاليد . فليت شعري أسارَ اليه منها ما سار ، وطار اليه منها ما طار، حباً له وهياماً به وشوقاً اليه ، أم سار السائر وطار الطائر استجابة لدعاء وتحقيقاً لرجاء ، وشفاء لبعض ما في الصدور ... خرجت إذن هذه الاشياء وهذه الاحياء من مدارس الصناعة والزراعة الى بيتي وزير التقاليد فليت شعري أؤديت اثمانها كما ينبغي أن تؤدى الاثمان ، أم أديت لها اثمان لا تعدل قيمتها ، ولا تلائم ما حملت الى الوزير من لذة وبهجة وراحة ومتاع ... اما وزارة المعارف فتنبئنا بان هذه الاشياء قد بيعت من الوزير بثمن بخس وبأن للدولة عند الوزير مئة وبعض المئة من الجنيهات . وليت شعري ما حكم الله في هذه المائة وبعض المائة من الجنيهات ؟ أتبقى عند وزير التقاليد أم تؤدى الى وزير المعارف ليؤديها الى وزير المال ؟ وليت شعري أأنشئت مدارس الزراعة والصناعة لتصلح بيت الوزير ، وما تملك من أدوات الزرع ، ولتذيق الوزير والذين يدعوهم الى مائدته ما في الحياة من لذة وبهجة ونعيم . أم انشئت مدارس الصناعة والزراعة لتعلم المصريين كيف يصنعون ويزرعون ، وكيف يتخذون الصناعة والزراعة وسيلة الى ترقية الحضارة واكتساب العيش ، والتماس الحياة . وليت شعري ماذا يقول

لضمائرهم هؤلاء الناس الذين طعموا على مائدة الوزير من ألوان الجبن والقشطة وشربوا عند الوزير ألوان الشراب واستمتعوا على مائدة الوزير بلحم تلك الطير التي أهديت اليه اهداء او أخذت له أخذاً ، والتي أدى اثمانها الصورية الى الدولة هذا البيطار أو هؤلاء التلاميذ .

وليت شعري ماذا يقول الوزير لضميره وماذا يقول للوزير ضمير الوزير ، وليت شعري أيسمع الوزير اذا جلس في مكتبه وحيداً أو مع أصحابه ، أحاديث هذا المتاع الذي انبثّ في الحجرة ، وهذه الاطارات التي علقت على الجدران ، أيفهم هذه الاحاديث ؟ أتثير في نفسه ألماً ؟ اتبعث في قلبه ندماً ؟ أتسبغ على وجهه هذه الحمرة التي تسبغها المخجلات على وجوه الذين يخجلون ؟ وليت شعري ما حكم وزير المعارف القائم في هذا العبث بالمدارس والاستغلال للتعليم والافساد لعقول الطلاب ، وعقول المعلمين ، واخلاق الموظفين . وليت شعري ما حكم وزير المال في هذا العبث المخزي بأموال الدولة ؟ وليت شعري ما حكم رئيس الوزراء ومجلس الوزراء في هذا الخزي المنكر ، وهذا الفساد العظيم ؟ أليس من سبيل الى ان يُسأل المسيء عما اساء ، ويؤخذ المذنب بما اذنب ، ويعاقب الآثم على ما قدمت يداه ؟ أقضي على هذا البلد ان تقترف فيه الآثام سراً وجهراً وتجترح

فيه السيئات خفية وعلناً ، وتهدر فيه القوانين ، وتنتهك فيه الحرمات ، ثم لا يُسأل آثم عن إثم ، ولا يؤخذ مجرم بجريمة ، وانما يستمتع المسيء بمثل ما يستمتع به البريء .

نعم ليت شعري ، وليت شعري ، وأنا استطيع ، وأنت تستطيع ان تردد معي هذا السؤال الف مرة ومرة ، دون ان تنتهي الى جواب ، فمنذ عام ونصف عام تظهر الفضيحة إثر الفضيحة وتعلن المخزية إثر المخزية ، والمصريون ينظرون ويسمعون ويألمون ، ويشكون ثم تنتهي أمورهم عند هذا . كلا . كلا . لن تستقيم للمصريين أخلاق إلا اذا عوقب المسيء على اساءته ، ولن تصلح للمصريين حياة الا اذا سئل المجرم عن جريمته ، ولن تكون لمصر سمعة تلائم ما تؤمن به لنفسها من كرامة ، إلا اذا عرف الاجانب ، واستيقنوا أن مدارس الصناعة والزراعة لم تنشأ لاصلاح بيوت الوزراء وارضاء حاجاتهم الى الدجاج ، والارانب وألوان الفاكهة والحلوى .

نعم لن تستقيم لمصر أمورها حتى تنهى التقاليد وزير التقاليد وامثاله عن استغلال المدارس لما لم تنشأ له المدارس ، واستغلال السلطان لما لم ينشأ له السلطان .

اما بعد فقد كنت أظن يا سيدي انك ستحزن ان نظرت الى يمين فرأيت الطغاة وقد انهزموا بعد انتصار ، وذلوا بعد

عز ، وانك ستضحك ان نظرت الى شمال فرأيت التقاليد تلعب حول وزير التقاليد ، ولكني رأيتك محزوناً في الحالين يضحك وجهك وتبكي نفسك فلا تلمني في هذا ، ولكن لُمْ حياتنا المصرية واذكر ان ابا الطيب قد تنبأ لك ولي ولامثالنا منذ الف سنة بهذه الحال :

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

ابريل ١٩٣٥

ادَبُ الصّيفْ

•

أقبل الصيف ، وأقبل معه قيظ شديد مرهق لا يصهر الابدان وحدها ، ولكنه يصهر معها العقول ، ولعله يصهر مع العقول والابدان بعض الاخلاق أيضاً ، فيدفع قوماً من الامر الى ما لم يكونوا ليُدفعوا اليه ، لو لم يشتد القيظ على أبدانهم ، وعقولهم ، واخلاقهم ، فيمنعهم من الاناة والمهل ، ومن التفكير والتروية ، ومن ضبط النفس وتسليط العقل على الارادة حين يعملون او يقولون . ولكني لم اكتب لأحصي آثار القيظ الشديد المرهق في أبدان الناس وعقولهم ، وأخلاقهم ، وانما أريد ان اسجل ان هذا القيظ الشديد المرهق لا تستقيم معه الاحاديث عن الشعر القديم عامة وعن شعر الجاهليين خاصة . فالاحاديث عن هذا الشعر تحتاج فيما يظهر الى شيء من الراحة والهدوء ، والقدرة على التفكير المطمئن وهذا الفراغ الفني الذي يتيح للذوق ان يستأني ويتمهل ويسيغ

الاشياء في غير جهد ولا مشقة ، ولا تعرُّضٍ لهـذا العناء السريع الذي نتعرض له حين يسلط الجو علينا هـذا الحر الشديد . واكبر الظن ان صاحبي الذي تعوّد ان يسرع إلي اذا كان ميعادنا من كل اسبوع لنأخذ فيما تعودنا ان نأخذ فيه ، من أحاديث الشعر القديم ، قد أحسَّ من الصيف مثل ما أحس ، وانكر من نفسه مثل ما أنكر ، واستيقن ان طاقته لا تستطيع ان تثبت لدرس الشعراء القدماء ومـا يعرضون له من صور مهما تكن جميلة رائعة موفورة الحظ من الروعة والجمال فانها أبية عصية لا تسمح بمكنونها ولا تتكشف عن مخزونها الا بعد شيء من التردد والتمنع والاباء يكلف الذين يطلبون اليها جمالها وروعتَها ، شيئاً من جهد ، وفضلاً من عناء .

يظهر ان صاحبي قد أحس هذا كلـه فأخلف الموعد ، لأول مرة ، ثم أخلفه للمرة الثانية ، ثم سألتُ عنه والتمسته في مظانّه ، فلم اهتدِ اليه ، ولم أدلّ عليه ، وخيل الي انه قـد فر من هذا الجو فراراً ، وأي شيء أيسر عليه من الفرار وهو لا يحتاج الى مثل ما نحتاج اليه نحن من التهيؤ الطويل الثقيل للاسفار . فلا بد لي اذن من ان استيئس من التحدث اليه في الشعر القديم حتى تنجلي غمرة الصيف ، واذا كان هو على لينه ورقته واعتصامه بهذه الرقة وذلك اللـين ، من

اعراض الحر والبرد قد فرّ من أحاديث الشعر القديم ، فما أجدر غيره من الناس ان يضيقوا بهذه الاحاديث ، وما اجدر الكتاب اذا لم يكن لهم بد من الكتابة ان يرفقوا بقرائهم اذا كتبوا والا يتحدثوا اليهم ، من الموضوعات فيما يكلفهم جهداً وشططاً . والكاتب مدين لقارئه بهذا الرفق ، أو قل ان الكاتب مدين لنفسه بان يرفق بقرائه ان كان حريصاً حقاً على ان يقرأوه ، راغباً حقاً في ان يتحدث الى عقولهم اليقظة المفكرة ، لا في ان يكون سبيلهم الى الضجر والسأم ، او الى الفتور والنوم .

ويخيل الي ان الكتاب الغربيين يقدرون هذا الطور من حياتهم وحياة قرائهم قدره ، فهم يرفقون بانفسهم وبالقراء ، اذا أقبل الصيف ، وهم يتخففون من الموضوعات الضخمة الفخمة والمسائل المشكلة المعضلة التي يعرضون لها في غير الصيف من فصول السنة وهم لا يعرضون من الاحاديث إلا للسهل اليسير ، الذي لا يكلف المتحدث ولا السامع مشقة ولا يكلفه جهد التروية والتفكير . وهم ينتهون بفضل هذا الرفق بانفسهم وبالقراء الى انشاء أدب خاص يتناول موضوعات قلما تتناول في غير فصل الصيف ويتناولها في صور قريبة مواتية قلما تظهر في الشتاء او الربيع . وهذا الادب الخاص الذي تمتلىء به الصحف الغربية في هذا الفصل من فصول السنة

يمكن أن نسميه أدب الصيف او أدب الاجازة ، او ادب الراحة والاستجمام .

وموضوعات هذا الادب الصيفي تفرض نفسها على الكتاب والقراء فرضاً ، كما ان موضوعات الادب كلها تفرض نفسها فرضاً على الكتاب والقراء الذين يستحقون ان يسموا كتاباً وقراء ، فاذا اقبل الصيف تفرق الطلاب والتلاميذ وفرغوا لحياة الاسرة وقتاً غير قصير فتغيرت حياتهم تغيراً ظاهراً ، وكانت خليقة ان تثير عناية الكاتب وعناية القارىء معاً ، وأن تدعوهما الى التفكير المشترك فيما يلقى الطلاب والتلاميذ من الجهد العنيف المحتوم ، أثناء السنة الدراسية وفيما ينتهي اليه الطلاب والتلاميذ من نتائج هذا الجهد التي يتكشف عنها الامتحان ، وفي الملاءمة بين هذا الجهد المتصل وبين طاقة الطلاب والتلاميذ وانتفاعهم وتكوّن عقولهم ، وأخلاقهم وأجسامهم ، وفي حياة الدرس ، وحياة الفراغ وما يكون للاسرة من تأثير في هذه الحياة أو تلك ومن تأثر بهذه الحياة او تلك . وأظن ان موضوعاً من هذه الموضوعات خليق أن يلهم الكاتب المجيد فصولاً خصبة قيمة تثير في نفس القارىء كثيراً من العواطف وتدفعه الى كثير من التفكير .

على ان الطلاب والتلاميذ اذا فرقهم الصيف من مدارسهم وردهم الى الاباء والامهات لم يستقروا في دورهم

ومنازلهم اكثر الوقت ، وانما يزعجهم الصيف عنها ازعاجاً او قل انهم ينتقلون عنها مختارين قد تهيأوا لهذا الانتقال وتهيأت له اسرهم ايضاً . واكبر الظن ان هذا الانتقال قد كان عزاءهم وعزاء آبائهم وأمهاتهم ، عما يجدون من جهد ، وما يلقون من عناء ، في الدرس المرهق والعمل المتصل . واكبر الظن انهم كانوا يتمثلون هذا الانتقال ، وما سيعقبه من راحة لاجسامهم وعقولهم ومن تغيير لما يرون ويسمعون ويحسون . كانوا يتمثلونه أول العام آسفين عليه بعد ان قضوا حاجتهم منه ، ثم يتمثلونه اثناء العام مشوقين اليه ، بعد أن بعد عهدهم به ، ثم يتمثلونه آخر العام راغبين فيه أشد الرغبة مندفعين اليه اشد الاندفاع يعدّون الايام والليالي ، التي تفصل بينهم وبينه ويستعينون بذلك على المسائل المشكلة والكتب الطوال الثقال وعلى اهوال الامتحان التحريري واخطار الامتحان الشفهي ، وعلى هذه الساعات المخوفة التي تعلق فيها نتائج الامتحان على جدران المدارس والجامعات . واذا تفرق الطلاب والتلاميذ مع اسرهم فهم يهجرون دورهم ومنازلهم ومدنهم وقراهم الى الجبال أو الى البحار ، او الى البحيرات او الى السهول الجميلة النضرة والغابات الكثيفة الملتفة . وكل هذا خليق ان يوصف ، وان يكون موضوعاً للحديث الطريف الممتع . والغريب ان الزمن يستدير في كل

عام كهيئته في الاعوام التي مضت ، وان الصيف يلم ويمضي ، وان الطلاب والمدرسين يتفرقون عن مدارسهم ويعودون اليها ، ويلمون باسرهم ويرحلون عنها ، ويقصدون الى الجبال والبحار والى الأودية والسهول ، ثم يردون الى مدارسهم وجامعاتهم ، كما يرد الاباء والامهات الى مناصبهم وأعمالهم ، وان الكتاب يتحدثون اليهم في كل صيف عن هذه الموضوعات دون ان يستنفدوا ما يقال عنها او يكتب فيها ، ودون ان يكرروا ما يقولون أو يعيدوا ما يكتبون كأن كل صيف اذا اقبل يُقبل بشيء جديد ولا يعود على الناس بمثل ما كان قد حمل اليهم من قبل . هذا غريب في ظاهره ، ولكن قليلاً من التفكير الذي يحتمله الصيف ولا يمنع منه اشتداد القيظ ، يدل على ان هذا لا غرابة فيه . فكل صيف يقبل ككل يوم يُقبل انما يحمل الى الناس ذكرياتٍ لما مضى وآثاراً لما انقضى ، فيها الرضى وفيها السخط ، فيها اللذة وفيها الالم ، ويحمل اليهم كذلك آمالاً فيما يقبل من الدهر كما يحمل اليهم خوفاً واشفاقاً ، بل ان كل صيف يقبل ككل يوم يقبل لا يحمل الجديد للناس وحدهم ، وانما يحمل الجديد للاشياء أيضاً ، فهل أنت واثق بان الغابة التي تراها في هذا الصيف بعد ان رأيتها في الصيف الماضي قد احتفظت لك بكل ما أرتك في العام الماضي من شجر وزهر ومن

اوراق وغصون ، ومن طير وحيوان ؟ هل أنت واثق بانها لم تغير هذا كله ، او بعضه ، او بان الاحداث لم تغير هذا كله أو بعضه ، ولم تذهب منه بما رأيت ، ولم تحدث لك منه ما لم تر ؟ وهل انت واثق بانك حين تعود الى هذا المصطاف الذي تعودت ان تنفق فيه الصيف ستلقى الوجوه التي لقيتها ، في العام الماضي ، وتسمع الاحاديث التي سمعتها في العام الماضي ، وتخوض مع الناس فيما كنت تخوض معهم فيه اثناء العام الماضي ؟ كلا ، بل انت واثق بانك ستلتمس كثيراً من الاشياء التي أعجبتك وراقتك حين ألممت بهذا المكان أو ذاك ، فلا تجدها . وستحزن عليها شيئاً من حزن ، وستثير غيبتها في نفسك قليلاً او كثيراً من الأسى ، وستجد في هذا الاسى وذلك الحزن شيئاً من هذه اللذة الشاحبة التي نسميها الشوق والحنين . فأي غرابة في ان يجد الكتاب والشعراء جديداً يتحدثون به الى الناس كلما اقبل الصيف ؟

واني لأعرف فصلاً من فصول الادب الصيفي الفرنسي رأيته يتجدد في كل عام اذا اقبل الصيف ، وجعلت أتتبع بعض ما استطيع ان أتتبعه منه كلما سنحت لي الفرصة فما أحسست اني ضقت به ، او زهدت فيه ، أو ادركني سأم من قراءته ، ولا احسست اني اقرأ شيئاً معاداً وحديثاً مكروراً.

وما اشك في ان هذا الفصل من الادب الفرنسي الصيفي

قديم ، قد بدأ الفرنسيون في كتابته منذ زمن بعيد ، وما اشك في انه سيظل جديداً ابداً ، سيكتب الفرنسيون فيه كل عام لا يسأمهم ولا يسأمونه ، وهو وصف باريس اذا أقبل الصيف فخلت من اهلها الباريسيين واستعدت للقاء زوارها الغرباء .

كثير جداً ما يقوله الفرنسيون في مدينتهم هذه حين ترسل اهلها الى الجبل والبحر وتستقبل الغرباء من اهل الاقاليم ، أو من اهل البلاد الاخرى القريبة والبعيدة . فهم يصفون شكل المدينة الذي يتغير ويختلف بتغير المضطربين فيها والمندفعين في شوارعها والمزدحمين على قهواتها وأنديتها ، وهم يصفون لغة باريس ، أو لغة اماكن معينة في باريس ، فهي فرنسية باريسية اثناء العام ، ولكنها فرنسية اقليمية او فرنسية اجنبية أثناء الصيف . وهم يصفون هذه الملاهي والملاعب التي تغلق ابوابها وترسل اصحابها الى مدن الصيف ، وهذه الملاهي والملاعب التي لا تغلق ابوابها وانما ترسل رجالها الى مدن الصيف ، وتستخدم ما يسمونه البطانة لتلهية الغرباء وتسليتهم. ثم هم يصفون هؤلاء البائسين من الباريسيين الذين تضطرهم ظروف الحياة الى ان يقيموا في باريس حين يرحل عنها الناس ، فان كانوا من الفقراء أو من الطبقات الوسطى احتملوا مقامهم في مدينة النور المهجورة في شجاعة و كبرياء ،

وصبر على المكروه . وإن كانوا من الاغنياء والمترفين احتملوا ذلك في حياء شديد وجدّوا في التنكر والاستخفاء . فان لقيهم لاقٍ او عثر بهم عاثر اجتهدوا في التماس المعاذير والتعلات يعللون بها ما لا يقبل التعليل من اقامتهم في هذا البلد ، الذي لا مقام فيه لرجل يعرف الذوق والاوضاع الاجتماعية ، ويعرف ما يليق وما لا يليق ، وما يحسن وما لا يحسن .

وللكتاب الفرنسيين فنون في تصوير هذا الفصل من الأدب الصيفي تلقاها في صحفهم على اختلافها ، تلقاها في صحفهم الهازلة كما تلقاها في صحفهم الجادة . ثم لهم فصول يصفون فيها السواحل ، وحياة المستحمين ، وأخرى يصفون فيها مدن الماء وأخرى يصفون فيها مصايف التلاميذ الفقراء ، ولهم بعد هذا فصول يصفون فيها هذه الالوان من اللهو الذي يبتكره المصطافون ابتكاراً ليستعينوا به على الوقت والفراغ وليستعين به بعضهم على بعض .

وهناك طائفة من الكتاب اذا أقبل الصيف ولم يجدوا ما يكتبون عن بلادهم كتبوا عن البلاد الأخرى يسعون الى ذلك ، ويبلغونه بالسفر وبالقراءة . فهذا الناقد من نقاد التمثيل ينظر فيرى الملاعب قد اقفلت أو اعرضت عن التجديد اثناء الصيف فينتهز الفرصة ويتحدث الى قرائه عن الادب التمثيلي الاجنبي في فصول ظريفة من اجمل ما يقرأ الناس . فاذا لاحظت أن المثقفين من الاوربيين ، وما اكثرهم ، يشغلون

بالعمل في أكثر السنة ولا يجدون من الوقت ما يحتاجون اليه ليقرأوا كل ما يحبون ان يقرأوا من آثار الكتاب والشعراء والعلماء ، التي تظهر في فصل الانتاج العقلي ، وانهم يجمعون هذه الآثار ويضمون بعضها الى بعض ، وينتظرون بها فصل الاجازات ليعكفوا عليها اذا ظفروا بقسطهم من الراحة ، اقول اذا لاحظتَ هذا عرفت أن القراء من المثقفين الاوروبيين يشقون على انفسهم في حقيقة الامر لانهم يقرأون ما ادخروا لأنفسهم اثناء العام وهم لذلك في حاجة الى أن يرفق بهم الكتاب ، فلا يكلفوهم جهد القراءة العنيفة الفنية الدسمة ان صح هذا التعبير الذي لا أحبه وانما اضطر اليه .

هذا هو الذي يكون أو هو بعض الذي يكون في اوربا اذا اقبل الصيف . فما الذي يكون في مصر حين يقبل هذا الفصل من كل عام ؟ أما ان الطلاب والتلاميذ يتفرقون ويعودون الى أسرهم ويصطاف القادرون منهم على الاصطياف فشيء ليس فيه شك ، وأما ان المصريين انفسهم يرحلون عن مدنهم وقراهم ، بل عن قريتهم الكبيرة التي نسميها القاهرة ليصطافوا في مصر وفي غير مصر فهذا شيء ليس فيه شك ايضاً . بل ليس من شك في ان كثيراً من أهل القاهرة يهجرون مدينتهم اذا كان الصيف ، وفي ان كثيراً من اهل الاقاليم يتخذون هذه المدينة الجميلة الثقيلة مصطافاً لانها اقل

حراً من اقصى الصعيد ومن كثير من قرى الريف ، وفي ان كثيراً من اهل القاهرة يعجزون عن الرحلة ويضطرون الى المقام فيكرهون ذلك ويضيقون به ، ويلتمسون لأنفسهم منه المعاذير ، ولكن الغريب ان شيئاً من هذا كله لا يلهم كتابنا وأدباءنا حديثاً من احاديث الصيف هذه التي تمتلىء بها الصحف الاوروبية في هذا الفصل من كل عام .

شيئان اثنان يعنى بهما الكتاب المصريون اذا كان هذا الفصل ، أحدهما موسم الامتحانات وما يثير من ضجيج وعجيج ومن شكاة واستعطاف ومن نقد للاسئلة ولوم للسائلين ، والثاني مصايف البحر وما تثير من هذا السخط الذي تمتلىء به نفوس جماعة من المتحرجين ، يغضبون للحياء والاخلاق ، ويكتبون الفصول الطوال يستعدون بها الحكومة على حماية الحياء والاخلاق. وما اظن ان كتابنا يعنون بغير هذين الامرين من امور الصيف خاصة . هم اذن لا يرفقون بأنفسهم ، ولا يرفقون بقرائهم ، بل يكتبون في الصيف كما كانوا يكتبون في الشتاء ، فان اخذوا بحظ من هذا الرفق امتنعوا عن الكتابة امتناعاً ، وصدوا عنها صدوداً ، واراحوا انفسهم من الكد واستمتعوا بفترة قصيرة من الهدوء الذي هم اهل له . ولكن الصحف لا بد من ان تظهر ولا بد من ان تظهر ممتلئة الانهار . وهنا يلقى اصحاب الصحف من صناعتهم الجهد كل الجهد ، ويلقى

القراء من صحفهم العناء كل العناء . اولئك يريدون ان يملأوا الصحف فلا يجدوا ما يملأونها به ، وهؤلاء يريدون ان يقرأوا فلا يجدوا ما يقرأون . وكذلك يصبح الصيف فصل الكساد الادبي العام . ومع ذلك فما ابعد الصيف عن أن يكون فصلًا من فصول الكساد لو عرفنا كيف نستقبله ونحتمله ونعاشره ونفارقه كما يفعل غيرنا من الناس . على اني مجتهد منذ الآن في ان اغير للقراء من احاديث الصيف لعلي ان اعينهم واعين نفسي على احتماله حتى تنجلي عنا غمرته . ولهم عليّ الا احدثهم في موضوع واحد مرتين حتى تنقضي هذه الاشهر الطوال .

يونيو ١٩٣٥

حوار في الادب

•

لم يرفع لي رأسه حين دخلت عليه ، ولم يرد علي التحية حين اهديتها اليه ، وانما ظل مطرقاً ممعناً في اطراقه ، صامتاً مغرقاً في صمته ، تمضي عينه رفيقة في كتاب قد وضعه امامه على المائدة ، وتعبث يده عبثاً منتظماً بقلم قد اخذت تضرب به صحفاً منتثرة على المائدة عن يمينه كأنما يداعب به هذه الصحف .

وليس من شك في انه كان يقرأ ما يقرأه في عناية شديدة وقد اخذ قلمه ونثر هذه الصحف ليسجل ما يخطر له من الملاحظات ، وكنت خليقاً ان اضيق بهذا الاعراض الذي يلقيني به وانكر هذا الانصراف الذي الح فيه لولا ان الكلفة بينه وبيني مرفوعة ، والألفة بينه وبيني متصلة . ولولا اني اعرف منه هذا النبوّ عما تعود الناس فيما بينهم من صلات قد يكون حظها من التكلف والنفاق ، اعظم من

حظها من السذاجة واليسر ومن هذه الصراحة التي لا تدع بين النفوس حجباً ولا استاراً .

وقد كان من الممكن ان ادخل عليه فلا ألقي اليه تحية ولا انتظر منه جواباً ، وانما اعمد الى هذا المكان الذي الفته من غرفة عمله فاستقرّ فيه هادئاً منتظراً ان يفرغ لي ، او استقر فيه نشيطاً لبعض ما أنشط له من العمل حين ادخل هذه الغرفة المغرية بالقراءة والجد لكثرة ما اشتملت عليه من الكتب المتنوعة في الفن والادب والعلم . ولكني في ذلك الصباح دخلت عليه كما ادخل على غيره من الناس وأهديت اليه التحية كما اهديها الى غيره من الناس . فلما آنست منه هذا الاعراض ذكرت اني أزوره هو لا غيره من ذوي المودة والمعرفة . فعدت الى ما ألفت من الامر عند لقائه ، وأقبلت على ما اردت ان أقبل عليه من عمل ، وتركته لكتابه وقلمه يقرأ في احدهما بعناية ، ويعبث باحدهما الاخر في نظام واطراد .

ولم تمض لحظات قصار حتى نسيت مكاني منه ومكانه مني ، وإذا انا أثوب إلى نفسي فجأة كأنما آتي من بعيد يدعوني إلى نفسي وإلى ما حولي هذا الصوت او هذه الاصوات التي أسمعها مختلطة متمايزة في وقت واحد . فصوت انسان يرتفع في الغرفة فيملؤها بهذه الالفاظ : اما الآن فقد فرغت لك فافرغ لي ، وصوت كتاب متوسط الضخامة يلقى على المائدة في عنف ،

وصوت قلم نحيل ضئيل يلقى على المائدة إلقـــاء بين العنف والرفق فيضطرب عليها اضطراباً يسيراً .

قلت لصاحبي : قد فرغت لي حين أردت أو حين أتيح لك الفراغ ، فأما أنا فلا أريد ان أفرغ لك أو قل لم يتح لي بعد أن أفرغ لك . فلم يرد عليّ جواباً ولكنه مشى رفيقاً إلى صاحبي ونظر في الكتاب الذي كان يقرأ لي فيه ، ثم انتزعه من يد صاحبي انتزاعاً وقال : هذا كتاب قرأته منذ اعوام وما ينبغي ان تقرأه وحدك فسنقرأه معاً وسيكثر الحوار بيننا حول ما جاء فيه من الخواطر والآراء وسنبدأ هذه القراءة ان شئت بعد ساعة اذا رددت عليك تحيتك باحسن منها ، وإذا شربنا من القهوة قدحاً أو قدحين وأحرقنا سيجارة او سيجارتين ، وأدرنا الحديث بيننا قليلاً اثناء ذلك حول صاحبكم هذا الذي أقمتم له الدنيا وأقعدتموهـــا منذ عام ، والذي تقيمون له الدنيا وتقعدونها منذ اول هـــذا القرن .

قلت حول أبي العلاء .. اليك عني فقد شبعت من حديث أبي العلاء حتى ادركتني التخمة او كادت تدركني فدعـني استرح منه ودعني أرِح منه الناس حيناً ، فقد صدقت ، لقد اقمنا الدنيا وأقعدناها بحديث ابي العلاء ، ولقـــد أقمنا انفسنا واقعدناها بحديث ابي العلاء حتى أخذنا الدوار وآن لرؤوسنا

ان تستقر ، ولأعصابنا ان تهدأ ، ولالسنتنا وعقولنا ان تأخذ في حديث آخر . فاذا أخذنا وأخذ الناس قسطاً من راحة وحظاً من دعة عدنا الى حديث ابي العلاء قمنا به وقعدنا وأقمنا الناس به واقعدناهم ، فان قصة ابي العلاء لم تنته بعد .

قال صاحبي وهو يضحك : لا تخدع نفسك ولا تخدعني فما سئمت حديث ابي العلاء ولا ضقت بهذا الدوار الذي اضطرك اليه هذا الحديث ، وما أعرف انك تحب شيئاً كما تحب هذا الدوار الذي يفنيك في صاحبك ويشغلك عن غيره من الناس والاحداث والخطوب . على أني لن احاورك فيما شغلتم به أنفسكم وشغلتم به الناس من آراء ابي العلاء في الفلسفة والسياسة والاخلاق والدين وشؤون الاجتماع فكل هذه اشياء قد ضقنا بها حقاً ، وآن لنا أن نستريح منها وقتاً ، انما أريد ان احاورك في شعر أبي العلاء فقلما تحدثتم في هذا الموضوع وقلما حاولتم ان تتعمقوه . وقد جعل بعضكم يزعم للناس انه شعر ، وجعل بعضكم الآخر يزعم للناس ألا حظ له من شعر أو ان حظه من الشعر ضئيل . قلت وتريد أنت ان تأتي بالقول الفصل في هذه القضية ، وان تمحو الخصومة فيها محواً وتلغيها الغاء وتردّ الناس الى شيء من الوفاق لا يختلفون بعده ابداً...

قال لا تعبث بي ولا تسرف في اساءة الظن برأي فاني لم أصل من الجهل بامور الشعر الى هذه المنزلة ، ومتى رأيت

الناس يصلون إلى الاتفاق في أمر شاعر من الشعراء فيقضوا له جميعاً بالتفوق أو بالتوسط او بتواضع المنزلة ؟ قلت فسنظل مختلفين في شعر أبي العلاء كما نحن مختلفون في شعر غيره من الشعراء . قال فان الخلاف في شأن أبي العلاء يأخذ شكلا خاصاً لم يأخذه الخلاف في شعر المتنبي ، وابي تمام او مسلم لان هؤلاء وامثالهم قد فرغوا للشعر وقصروا عليه حياتهم ووقفوا عليه جهودهم وسلكوا اليه الطرق التي تعوّد الشعراء ان يسلكوها إلى الاجادة في الفن . فاما ابو العلاء فأمره لا يخلو من غرابة ، فهو من اكثر الشعراء شعراً ولعله إن وصلت الينا آثاره كلها ان يكون اكثرهم شعراً . ثم هو لم يسلك في الشعر طريقة واحدة ولم يقصد به الى غاية واحدة من غايات الفن ، وانما قصد إلى غايات مختلفة متنوعة كما سلك طرقاً متمايزة متباينة . فهو شاعر كغيره من الشعراء يصور عواطف نفسه واهواءها ويصور عواطف الناس واهواءهم ويصور مظاهر الطبيعة من حوله كما استطاع ان يصورها ، يشارك في المدح والرثاء ، كما يشارك في الفخر والوصف وكما يشارك في الهجاء الى حد قريب . ولكنه يذهب مذاهب اخرى فيقول في الفلسفة وفي الفلسفة التي لم يتعود الشعراء أن يطرقوها ولا ان يخضعوها للنظم ، ويقول في السياسة على غير النحو الذي ألفه الشعراء السياسيون ، ويقول في النقد الاجتماعي والديني ويذهب مذهب

الالغاز كما يذهب مذهب الرمز ، ثم هو يسلك في هـذه الاغراض كلها طرقاً منها المستقيم البين ومنها الملتوي الغامض ، يسلك طريق الشعراء الذين عاصروه او سبقوه فيسهل في الفاظه حيناً ويشقّ فيها على نفسه وعلى الناس حيناً آخر ، ويلزم عمود الشعر مرة كما لزمه القدماء فيجري على طبعه وعلى طبع اللغة ، وينحرف عنه مرة أخرى فيمضي على طريقة ابي تمام واصحابه صانعاً حيناً ومتصنعاً حيناً ، ويمضي على طريقة المتنبي فيأخذ في هذا التكلف الذي يلجأ اليه الشعراء حين توشك شجرة الشعر ان تجفّ ، وحين توشك زهرات الشعر ان يدركها الذبول ، ثم ينحرف عن هذا كله مرة واحدة ويسلك في اللزوميات وغير اللزوميات طرقاً لم يسلكها أحد قبله فيتجافى بالفاظه ومعانيه عن المألوف ، ويتجافى بالقافية خاصة عن المألوف ، فيكلف نفسه ويكلف الناس من امره شططاً ، ويخضع المعاني للقوافي ويجعل نفسه وخواطره وعواطفه عبيداً لهذه القوافي . فانت ترى ان امر الشعر عند ابي العلاء ليس كأمر الشعر عند غيره من الشعراء ، بل هو اشد التواء واكثر تعقيداً ، ولهذا اختلف في حظه من الشعر وفي تقدير ما ترك من الكلام المنظوم القدماء والمحدثون جميعاً ، وظهر هذا الخلاف في عصره وفي آثار تلاميذه الذين سمعوا منه على كل حال .

قلت وماذا تريد ان اصنع ؟ اختلف الناس في شعر ابي العلاء

قديماً وحديثاً وسيظلون مختلفين في شعره ، فدعهم يختلفوا فلو شاء ربك لاتفقوا ولكنه لم يشأ ، وهم مختلفون في شعر ابي العلاء كما هم مختلفون في الشعر كله وكما هم مختلفون في كل شيء.

قال فاني كنت مشغولاً حين دخلت عليه بقصيدة من قصائده تلك التي قالها في بغداد . قرأتها مرة ومرة وجعلت أنظر في أبياتها بيتاً بيتاً ثم أنظر فيها كلها جملة ، ثم أنظر فيما قيل حول أبياتها من الشرح والتفسير ، ثم أسأل نفسي أكان أبو العلاء شاعراً أم لم يكن ؟ أأقرأ شعراً جيداً أم أقرأ شعراً متوسطاً أم أقرأ شعراً رديئاً ؟ والغريب أني لم أكن اظفر بجواب مقنع عن سؤال واحد من هذه الأسئلة ، او قل إني كنت أظفر باجوبة مختلفة لكل هذه الأسئلة ، فقد كنت أرى ان أبا العلاء شاعر لأني كنت اهتز لبعض أبياته . وكنت ارى انه ليس شاعراً لأني كنت أزورّ عن بعض ابياته . وكنت ارى اني اقرأ شعراً جيداً وشعراً متوسطاً وشعراً رديئاً ، ولولا ان هذا كله قد دفعني إلى كثير من الحيرة والاضطراب لمضيت في قراءتي وخليت بينك وبين كتابك هذا الذي كنت مقبلاً عليه . قلت فاول ما ينبغي ان نسجله هو ان هذه القصيدة لم تملك عليك امرك ولم تستأثر بقلبك ولم تخرجك عن طورك ، وانما اتاحت لك السؤال والجواب والتفكير والتقدير ، فهي إذن ليست قصيدة رائعة

ولو قد كانت كذلك لما اضطررت الى حيرة ولا إلى اضطراب، ولكن ارجو الا تكون من هؤلاء الذين يقضون على الشاعر ببيت من ابياته او قصيدة من قصائده . قال لست من هؤلاء ، ولست ارى ان هذه الحيرة التي دفعتُ اليها تمنع ان تكون هذه القصيدة رائعة . فقد اكون انا مصدر هذه الحيرة ، وقد يكون ترددي في امرها ناشئاً عن قصور مني لا عن قصور من الشاعر او تقصير . وانت تعلم ان من خير ما تنتهي اليه الآثار الفنية في نفوس الذين يشهدونها ان تثير فيها الحيرة والتردد والاضطراب . ولست اخفي عليك اني لا احب الاعجاب اليسير ، ولا اغالي بهذه الروعة التي تأخذني من جميع اقطاري وتمنعني من التفكير والتقدير والحكم . قلت وما عسى ان تكون هذه القصيدة التي اضاعت علينا كل هذا الوقت ، فقد شربنا القهوة واحرقنا سجائر لا سيجارتين، واجلت قراءتنا لهذا الكتاب البائس إلى اجل غير مسمى . قال هي قصيدته التي قالها في بغداد يصور فيها حنينه إلى المعرة والتي اولها :

طربن لضوء البارق المتعالي ببغداد وهناً ما لهنّ ومالي

قلت كفى الله عنك ، لقد شككت في غير موضع للشك، وادركتك الحيرة في غير مصدر للحيرة ، فهذه القصيدة من خير ما قال ابو العلاء لانها تصور اكرم ما يجب الرجل او

قل اكرم ما يجب الشاعر ان يصور من ذات نفسه . قال هذا شيء احدثّ نفسي به ولا أكاد احققه لكثرة ما في هذه القصيدة من إغراب والتواء يأتيانها من هذا الحديث الطويل عن الأبل ومن هذا الحديث الطويل عن الطريق واهوالها ، ومن هذه الالوان المتكلفة من الاستعارة والمجاز والطباق . قلت فانك لا تعيب على القصيدة إلا انها شعر . قال وما ذاك ؟ قلت تعيب على القصيدة ما فيها من حديث طويل عن الابل وعن الطريق واهوالها وما فيها من الوان الفن البياني كانك تريد من ابي العلاء ان يتحدث اليك حديثاً مباشراً يسيراً قريب المنال بما اراد ان يقول ، ولو انه استمع لك واجابك إلى ما تريد لما زاد على ان يقول انه ، ما دام على فراق المعرة ، مشوقٌ إلى ان يعود اليها لا يعدل بها ولا بارض الشام مدينة اخرى وان كانت بغداد ، ولا ارضاً اخرى وان كانت العراق . انه لم يرد ان يقول اكثر من هذا . استغفر الله ! بل اراد ان يقر الطمأنينة في نفس اخوانه من اهل الشام على انه لم يزل عزيزاً كريماً لم يذل نفسه بالسؤال ، ولم يبتذل وجهه بتملق الاغنياء وان كان حظه من المال ضئيلاً . افتراه ، وقد حدثك هذا الحديث على هذا النحو اليسير ، ارضى حاجتك إلى الجمال الفني واثار من قلبك هذه العواطف المختلفة ، عواطف الحنان والحنين والشوق والشكوى والارتفاع

عن الصغائر والدنيات ؟ قال كلا ولكنه يجعل بيني وبين هذا الجمال وهذه العواطف والخواطر حجباً كثافاً من الفاظه واساليبه ، فلو قد قربها إليّ بعض التقريب ... قلت فانك تطلب الى الشاعر ما لا ينبغي ان يُطلب إلى الشعراء ، فليس من الحق على الشاعر ان يقدم اليك فنه الرائع وانت هادىء وادع مطمئن ناعم البال ، وانما الحق عليك ان تجدّ كما جدّ ، وتتعب كما تعب ، وتشتهي بالتماس الجمال كما شقي هو بعرض هذا الجمال . ذلك احرى ان يجعل استمتاعك بالفن فيما تدركه عن استحقاق ، وذلك احرى ان يجعلك شريك الشاعر في هذا الجهد الخصب الخالد الذي يبذله الشعراء وقراؤهم وسامعوهم ليصلوا إلى هذه الغاية العليا ، وهي تصفية النفس وتنقية الذوق وترقية الطبع واصلاح الضمير .

وبعد فما الذي اعباك من هذه القصيدة وصفه للابل ؟ فانه لم يصف إلا حنينها الى ما ألفت من ارض الشام وهو قد افتنّ في تصوير هذا الحنين فجعل الابل تتطاول إلى هذا البرق المقبل من الشام وتتطاول حتى تكاد ان تقطع اعناقها لتصطلي بنار هذا البرق ، وجعل هذه الابل ترجع حنينها إلى الشام تتلو كتاباً منزلاً فيه حب الوطن وايثاره على كل وطن آخر ، وجعل هذه الابل حين ترجّع حنينها تنشد قصيدة لا يدرى أحديثة هي ام قديمة ، لان الحنين الى الوطن

خالد لا يدري أحدث احديث هوأم قديم ، وجعل هذه الابل حين ترجع حنينها تغني اصواتا في الثقيل الاول من ضروب الغناء ، فيها ابطاء واناة وتمهل لأن الحنين إلى الاوطان يلزم النفس في جميع خطوات الحياة . وجعل هذه الابل تريد ان تطير إلى اوطانها في الشام لولا ان العقال يمنعها من ان تطير ، وهو مع ذلك ليس واثقاً بان العقال يمنعها من الطيران ، ولولا رفقه بها وحبه لها لأمر صاحبه بان يقيدها بالسيف . وهل تظن ان الابل احست شيئاً من ذلك او حاولته ؟ كلا وانما هو ابو العلاء قد احس هذا كله واكثر من هذا كله ، وحاول هذا كله واكثر من هذا كله ، وادى ما احس وما حاول في هذا النحو من الرمز كما اداه الشعراء منذ العصر القديم. ثم لم يستطع ان يكتفي بالرمز فجعل الرمز وسيلة إلى خلق البيئة وانشاء الجو الشعري كما يقال في هذه الايام ، حتى اذا بلغ من ذلك ما اراد صرح عن نفسه في غير لبس ولا التواء ولا تردد ولا استحياء ، فقال هذين البيتين اللذين ما اظنك تجادل في روعتهما التي تأتيهما من صدق العاطفة . قال :

ومن لي باني في جناح غمامة تشبهها في الجنح امّ رئال
تهادانيَ الارواح حتى تحطني على يد ريح بالفرات شمال

ولا يرعك قوله « تشبهها في الجنح ام رئال » فانه اسلوب مألوف من اساليب القدماء حين كانوا يشبهون السحاب بالنعام

ولكنك تحب التصريح والكلام القريب فهو يتمنى ما كان ينكره على الابل من العودة الى ارض الشام تحمله اليها غمامة او تتهاداه الريح حتى تبلغ به شاطىء الفرات غير بعيد من حلب والمعرة .

واذا كنت تريد تصريحاً اصرح ووضوحاً اوضح فاقرأ قوله :

فيابرق ليس الكرخ داري وانما رماني اليه الدهر منذ ليال
فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسال

ولا يشغلك الشعر عن التاريخ فابو العلاء يقول هذه القصيدة بعد ان وصل الى بغداد بلياليٍ قليلة وهو يقول بعد ذلك :

دعا رجبٌ جيش الغرام فاقبلت رعال ترود الهمّ بعد رعال

فهو اذن قد وصل إلى بغداد في جمادى الثانية ، واكبر الظن ان هذه القصيدة هي اول ما صوّر شوقه الى المعرة بعد ان وصل الى دار السلام .

وانت تريد الكلام الواضح اليسير الذي لا التواء فيه ولا غموض ولا رمز فيه ولا تلميح فاقرأ قوله :

أإخواننا بين الفرات وجلقٍ يدَ الله لا خبرتكم بمحال
انبئكم اني على العهد سالم ووجهيَ لمّا يبتذل بسؤال
وإني تيممت العراق لغيرها تيممه غيلان عند بلال

وهممت ان امضي في الحديث ولكن صاحبي يمس كتفي

مساً رفيقاً وهو يقول : على رسلك ، الست ترى انا ننصف انفسنا وننصف ابا العلاء ان استأنفنا قراءة « سقط الزند » من اوله ؟ قلت هذا شيء قد يكون وقد لا يكون . ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو انك ستقرأ معي هذا الكتاب الفرنسي الذي صرفتني عنه آنفاً ، او ستخلي بيني وبينه حتى اقرأه فقد شغفت بهذه الصحف الاولى منه . قال وهو يضحك : ولن تمضي فيه حتى تزداد به شغفاً وكلفاً .

نوفمبر ١٩٤٤

عيد

•

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

هذا سؤال ألقاه المتنبي على احد الأعياد في مصر منذ ألف عام ، وأظن ان كل شاعر أو غير شاعر يستطيع ان يلقيه اليوم على عيد الاستقلال الذي تنعم به مصر السعيدة . ويستطيع ان يلقيه في نفس اللهجة اليائسة البائسة التي اصطنعها المتنبي ، فقد تغيرت أشياء كثيرة منذ ألف عام في مصر ، ولكن شيئاً واحداً لم يتغير وهو أن الشعب المصري ما زال كما تصوره قصيدة المتنبي راضياً ناعماً رضي البال تختلف عليه الاعياد فيستقبلها مبتهجاً مغتبطاً لانها تحمل اليه من الوان السعادة والبهجة والغبطة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . والشعراء وأمثال الشعراء من المفكرين والمفلسفين هم وحدهم الذين ينظرون الى هذا الشعب فاذا رأوه ساهياً لاهياً وراضياً ناعماً رسموا

على ثغورهم هـذه الابتسامة الحزينة الكئيبة المرة ، وقالوا كما قال المتنبي :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

وقـــد أرادت دورة الفلك ان يستقبل المصريون اليوم عيدين في نهار واحد : عيد قديم بعد به العهد وهو عيد وفاء النيل ، وعيد حديث قرب بـه العهد وهو عيد الاستقلال . ففي مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٦ أمضى المصريون ، وكانوا يومئذ مجتمعي الكلمة موحدي الرأي ، هذه المعاهدة التي تنظم الأمر بيننا وبين حلفائنا الانجليز ، ثم عادوا فقرروا ان هذا اليوم سيصبح عيـــداً وطنياً يذكر فيه المصريون خطوة خطيرة خطوهـا في سبيل الاستقلال . وما أظن أنهم قرروا أن يكون هـذا اليوم عيداً يطمئن المصريون اليه ويقنعون بما يصور من ظفرهم ببعض الحقوق ، وانمـــا اعتقد انهم اتخذوه عيداً يثير في المصريين الأمل والشجاعة ومضاء العزم ، يذكرهم بأنهم جاهدوا فظفروا ببعض الحق ، فيجب عليهم أن يجاهدوا ليظفروا بالحق كله . مهما يكن من شيء فالمصريون سعداء اليوم قد قرّت عيونهم ، وطابت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم لأن النيل قد وفى لهم بما عاهدهم على ان يمدهم به في كل عام من الري والخصب والثراء ، ولأن حلفاءهم الانجليز قـــد وفوا لهم بما عاهدوهم عليه من احترام الاستقلال ،

والاعتراف بالكرامة ، والاحتفاظ لهم بالمودة والحب على اساس من الحق والعدل والمساواة .

وفى النيل فيجب أن يسعد المصريون ، ووفى الحلفاء فيجب أن يسعد المصريون ؛ وهم سعداء ، ألا ترى الى الحكومة قد قررت اراحة الوزارات والمصالح من العمل في هـذا العيد السعيد ، فاباحت للموظفين ان يناموا حتى يرتفع الضحى ، وان يستيقظوا آمنين لا يشفقون من الانتقال الى دواوينهم مع صعوبة الانتقال ، ولا من هذه الاعمال الشاقة المرهقة التي ينهضون بها في مكاتبهم ، وأذنت لهم بان يقيموا في بيوتهم إن يشاءوا ويختلفوا إلى أنديتهم وقهواتهم إن احبوا ، يلقى بعضهم بعضاً باسماً ، ويلقي بعضهم الى بعض الوان الحديث ، يتندرون بما تنشر الصحف من اخبارهم واخبار نظرائهم ، ويتحدثون بمـــا تنشر الصحف من ضروب الخصام والصراع بين المصريين ، ويتفكهون بما تنشر الصحف المضحكة من الوان الفكاهة وفنون الصور وصنوف الاشاعات ، يجدون في هذا كله اللذة كل اللذة ، والنعيم كل النعيم . ومتى تُلتمس اللذة اذا لم تُلتمس في يوم العيـــد ، ومتى يُطلب النعيم اذا لم يطلب يوم وفاء النيل بالري والثراء ويوم وفاء الحلفـــاء بالكرامة والاستقلال...

ألا ترى الى الحكومة قد أمرت ان ترفع الاعلام على

الدواوين في العاصمة والاقاليم ليرى الناس جميعاً ان الامة المصرية راضية مبتهجة تحتفل بعيدهـــا السعيد او بعيديها السعيدين ؟ كل شيء يدل في وضوح وجلاء على اننا سعداء ، ويوجد بيننا مع ذلك من يرسم على ثغره هذه الابتسامة الحزينة الكئيبة المرة ويقول في لهجة المتنبي الساخرة اللذاعة :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

ذلك لأن هؤلاء الناس يرون اشياء لا تراها الحكومة ، او لا تحبّ ان تراها ، اولا تحب ان يظهر انها تراها ، وهم حين يرون هذه الاشياء يشعرون بأن هذه السعادة الظاهرة ليست من السعادة في شيء وانما هي تجلدٌ على احتمال الشر ، وتكلف لاحتمال الشقاء ، واحتيال للتخلص من المكروه . فهؤلاء الذين أذنت لهم الحكومة بالراحة من الاختلاف الى الدواوين لا يسعدون بالراحة كما انهم لا يسعدون بالعمل ، وانما هم أشقياء حين يذهبون إلى مكاتبهم ، وأشقياء حين يستقرون في بيوتهم ، وأشقياء حين يختلفون إلى أنديتهم وحين يتجاذبون اطراف الحديث . يأتيهم الشقـاء المرّ من هذه النفوس التي خُلقت لتحدث في الحيـــاة أموراً ذات خطر فرُدّت إلى الخمول والجمود والرضى بالقليل والقناعة بما لا يقنع به الا العاجزون الذين فُرض عليهم التواضع في الآمال والامـــاني ، وفي المطامع والمآرب فرضاً .

يأتيهم الشقاء المرّ من هـذه النفوس التي كان يمكن أن تكون كباراً فاضطرت ألى ان ترضى بالصغر والضآلة وتقنع بالهين من الأمر فترضى بالعمل الذي لا يغني حين تعمل، وترضى بالراحة العقيمة المجدية حين تستريح .

ان هذه الثغور الباسمة لا تصوّر نفوساً باسمة ، وانما هو ابتسام يصور الكآبة ، وابتهاج يصور الحزن ، ورضى يصور السخط الذي عجز حتى عن ان يعلن نفسه الى اصحابه فاستقر دفيناً في أعماق القلوب ، يملأ نفوس اصحابه استخفافاً بالحياة وانصرافاً عن جلائل الاعمال ، ويقنعها بما كتب لها من هذه الحياة التافهة التي تمرّ بأصحابها وبمن حولهم وبما حولهم كما يمضي المساء الرفيق على الحجارة الملس فلا يترك فيها أثراً يسيراً أو عميقاً .

ان هذه الاعلام التي تخفق مع الريح لا تصور خفقات القلوب ولا خلجات النفوس ، لأن القلوب لا تخفق ولأن النفوس لا تختلج ، وانما هي حياة راكدة لا تدل على على شيء ، لا تصور فوزاً قد ظفر به اصحابها ولا تصور املاً يطمح اليه اصحابها ، وانما تصور اياماً تمضي يتتابع فيها الليل والنهار في غير طائل ولا غناء . لقد وفى النيل للمصريين بالري والثراء ، ولكن ما حظ المصريين من هذ الري ؟ وما نصيب المصريين من هذا الثراء ؟ انهم يبلغون ما

يقرب من عشرين مليوناً من الناس قد وفى لهم النيل جميعاً بالري والثراء ، فكم منهم يستمتع بهذا الري ؟ وكم منهم ينعم بهذا الثراء ؟ آحـــاد الالوف او عشرات الالوف أو مئات الالوف ان شئت ، ولكن هناك ملايين وملايين من المصريين لا ينعمون بهذا الري ، وانما يشربون ماء يحمل اليهم المرض والأذى والعناء ، ولا يستمتعون بالثراء وانما يصارعون البؤس والحرمان ، فيصرعهم البؤس والحرمان آخر الامر ، وهم يسمعون ان حكومتهم تحتفل بوفاء النيل ، وهم يعلمون أن النيل قد وفى ، وهم يحتفلون بالعيد لأن الاعياد قد خلقت للاحتفال بها ، وهم يرضون عن وفاء النيل ويبتهجون به لان وفاء النيل شيء يسرّ ويشيع الابتهاج .

ولكن وفـاء النيل بالقياس اليهم معناه الكدّ الذي لا يعصم صاحبه من الجوع ، والعناء الذي لا يحمي صاحبه من الحرمان . معناه العمل لتمتلىء بعض الايدي وتظل يد العامل خالية لا تمسك شيئاً ؛ معنـاه الشقاء لتكتظ بعض البطون ويظل بطن العامل خالياً يمزقه الجوع ؛ معناه العمل لينعم فريق من الناس ، وليمعن اكثر الناس في هـــذا الابتئاس البغيض الذي أَلِفَهُ اصحابه حتى رأوه حقاً عليهم ، وحتى وثقوا بانه نصيبهم من الحياة فرضوا بـه واطمأنوا اليه ولم يحاولوا تغييره ولا التخلص منه ، لانهم لا يستطيعون مغالبة

القضاء فهم ماضون في شقائهم محتملون لآلامهم ، راضون بما قسم لهم ، والمتنبي وأمثاله ينظرون اليهم فيفهمون عن صمتهم ويبينون عن عيهم بهذا البيت :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

كذلك يحتفل المصريون بوفاء النيل . فأما احتفالهم بالاستقلال فليس اقل روعة ولا بهجة ولا جمالا ، هو ملائم كل الملائمة لحياتهم المادية التي يحيونها .

كانوا يظنون أن إمضاء المعاهدة خطوة تقرب من الامل وتدني من الحق ، وكانوا يظنون انهم قد دافعوا عن الديمقراطية وأبلوا في الدفاع عنها بلاء حسناً ، وكانوا يظنون انهم قد صبروا حين قلّ الصابرون ، وانهم قد وفوا حين قلّ الأوفياء ، وانهم قد ثبتوا حين زاغت الأبصار ، وطارت النفوس ، وبلغت القلوب الحناجر ، وان هذا كله سيبلغهم آمالهم ويكسبهم حقوقهم ، ولكنهم نظروا فاذا الذين لم يصبروا ولم يثبتوا ولم يفوا احسن منهم حالا وادنى منهم إلى تحقيق الآمال وارضاء المطامع والمآرب .

كانوا يظنون انهم سيبلغون الاستقلال الكامل وان حلفاءهم سيهدون اليهم ما بقي من هذا الاستقلال أداء للحق واعترافاً بالجميل . فنظروا فاذا حلفاؤهم يؤثرون الصمت ثم يقولون سننظر في الوقت الملائم مقدرين لمصالحنا المتبادلة ...

كانوا يظنون ان حكومتهم ستطالب بهذا الحق وستجدّ في الظفر به لا تريح ولا تستريح ، فاذا رئيس حكومتهم يعلن اليهم انه ينتهز الفرصة ولن يقصر عن انتهازها حين تسنح . . .

كانوا يظنون ان السلام سيحمل اليهم أمناً وعدلا ورضى ، فاذا السلام يمثلهم فيما كانت الحرب تفرض عليهم من الخوف والجور والظلم . وكانوا يظنون ان السلام سيردّهم أحراراً كما ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، فاذا السلام يمسكهم في القيود والاغلال كما أمسكتهم الحرب في القيود والاغلال .

كانوا يقدرون انهم سيحتفلون في هذا اليوم بكسب الحقوق ونيل الآمال ، فاذا هم يحتفلون في هذا اليوم بامضاء المعاهدة التي أكل الدهر عليها وشرب ، والتي أبلتها الاعوام القليلة لكثرة ما في هذه الاعوام من الاحداث والخطوب ، واذا هم اليوم كما كانوا في سنة ١٩٣٧ بعد ان مضى عام واحد على إمضاء المعاهدة يرضون بالقليل وينتظرون الكثير كأن الحوادث لم تحدث ، وكأن الخطوب لم تلمّ ، وكأن ايطاليا والمانيا واليابان لم تستسلم بلا قيد ولا شرط .

فهم من أجل هذا كله يحتفلون بوفاء الحلفاء كما يحتفلون بوفاء النيل . يوم من الايام يمرّ وتتبعه أيام أخرى ليست خيراً منه وعسى ألا تكون شراً منه . نعيمٌ قد قُسم للقلة

وبؤس قد فُرض على الكثرة ، وسلطان قد أتيح للقلة ، وخضوع قد فرض على الكثرة . ومصالح الحكومة ودواوينها معطلة ، والموظفون يستريحون في الدور ويقطعون الوقت في الاندية ، والشمس تشرق باسمة ساخرة ، والليل يقبل عابساً مزدرياً ، والاعلام تخفق ، والشعب يعمل ، والمتنبي وأمثاله يرسمون على ثغورهم هذه الابتسامة الحزينة الكئيبة المرة ويسألون في صوت ساخر حزين :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

١٩٤٤

طيف

•

القى كل واحد منهما إلى صاحبه نظرة دهشة واجمة فيها كثير من هذه الغفلة الحائرة التي تنشأ من المفاجأة والتي تلمّ بالآمن المطمئن حين يفجأه من الأمر ما لم يكن ينتظر ، بل ما لم يكن يخطر له ببال . وكانت النظرة التي القاها كل منهما الى صاحبه خاطفة اول الامر ولكنها عادت فطالت واستقرت شيئاً ما ، ولزمت مع ذلك صمتاً إن صوّر شيئاً فانما يصور انعقاد اللسان حين تسيطر الحيرة على العقل فلا يفكر ، وعلى القلب فلا يشعر ، وعلى اللسان فلا يقول .

وقد لبث كل منهما بازاء صاحبه ذاهلاً غافلاً لا يعرف ماذا يصنع ولا يدري كيف يقول ، ولو قد عرض لهما هذا اللقاء المفاجىء لاصابتهما الحيرة وقتاً طويلاً او قصيراً ، ولانتهيا آخر الامر إلى مخرج من هذه الحيرة بكلمة تنفرج عنها الشفاه ، او ضحكة تنفغر لها الافواه . ولكنهما في

موقفهما هذا لم يكونا يستطيعان ان يخرجا من حيرتهما الصامتة إلى الضحك او الى الكلام . فقد كان بينهما هذا القبر النائم يضطرهما إلى شيء من الوقار لا يملكان معه ضحكا ان ارادا الضحك ، ولا كلاماً ان ارادا الكلام . وهما من اجل ذلك قد لبثا صامتين واجمين يلتمسان مخرجاً من هـــذا الصمت ومنصرَفاً عن هذا الوجوم ، فلا يجدان إلى شيء من ذلك سبيلًا . وقد أخذ كل واحد منهما يحدث نفسه بالانصراف عن هذا القبر ، يرى في هذا الانصراف فرجاً من هذا الحرج ، ومخرجاً من هذا الضيق ، ولكن كل واحد منهما كان يسأل نفسه ايبدأ هو بالانصراف ام ينتظر حتى يضطر صاحبه إلى ان ينصرف ؟ وانهما لفي هـــذه الحيرة المتصلة واذا خطوٌ يُسمع وقعه من بعيد ، فيرفعان رأسيهما وينظران من حيث يسمعان ، فاذا شخص يقبل بطيئاً رزيناً متكلفاً الوقار ، ولا يكاد يدنو منهما حتى يعرفاه كما يعرف كل واحد منهما نفسه ، فهو صديقهما الثالث الذي تعوّد ان يلقاهما حين يقبل المساء من كل يوم ، وان يسمر معهما حيث تعودوا ان يسمروا في نادٍ من اندية القاهرة اول الليل ، وان ينصرف معهما إلى حيث تعودوا ان ينصرفوا حين يوشك الليل ان ينتصف فيلقون في بعض الاندية الخاصة ، من يلقون من رفاق اللهو وخلان العبث والمجون ، حتى اذا كاد الليل يبلغ ثلثيه أوى

ثلاثتهم الى تلك الدار التي تعودوا ان يأووا اليها في آخر الليل وقد خلصت نفوسهم للهو ، وصفت ضمائرهم للعبث ، وحسن استعدادهم للمجون ، او قل ان شئت لاستيفاء حظهم من المجون .

هنالك يكون شرب الكؤوس الأخيرة ، وهنالك تنطلق الالسنة بما تشاء في غير تكلف ولا تحرج ، وهنالك ترسل النفوس على سجيتها في غير احتياط ولا تحفظ ، وهنالك يخلع الانسان عن نفسه هذه الخصال المصطنعة التي فرضتها الحضارة على المتحضرين ، ويصير الى حال من الانسانية المترفة الفاجرة التي تنحطّ بصاحبها او ترتقي بصاحبها ، لا ادري ، الى حيوانية مترفة لا ادب فيها ولا وقار . حتى اذا انهزم الليل وولى مدبراً ، وانتصر الصبح واقبل ظافراً ، انسلوا من هذه الدار لا تكاد اقدامهم تحملهم ولا تكاد اجسامهم تسع نفوسهم ، ولا تكاد السنتهم تنطق ، ولا تكاد عقولهم تفكر ، ولا تكاد قلوبهم تشعر لانهم قد اسرفوا على انفسهم في الاستمتاع بانسانيتهم المهذبة التي نعمت حتى افسدها النعيم ، واثرت حتى اطغاها الثراء ، وارتقت حتى انحدر بها الارتقاء إلى الدرك الأسفل من الانحطاط ، ولا يكادون يبلغون باب الدار متثاقلين متهالكين يسندهم الخدم مكبرين لهم ساخرين منهم حتى يتلقى كل واحد منهم سائق سيارته فيقره على

شيء من الجهد في السيارة يظهر الاكبار له ويضمر الاستهزاء به ، ثم يمضي بهذا المتاع الغـــالي الرخيص حتى ينتهي به الى داره ، وحتى يردّ منه الى اهل الدار شيئاً عظيماً جداً في اعين الناس ، حقيراً جداً في عين نفسه وفي عين اهله ، وهو هذه البقية التي تركها الصبى واللهو والخلاعة والمجون .

فاذا تقدم النهار ، وارتفع الضحى ، وزالت الشمس او كادت تزول ، افاقت هذه البقية البالية من نومها الثقيل الغليظ وتلقاها عمال الترف ، اولئك الذين يجددون البالي ، ويحسنون القبيـح ، ويقيمون المتهدم ، ويردون الشباب الى من فارقهم الشباب ... وما هي إلا ساعات حتى تستأنف هذه البقايا البالية حيـاة جديدة فيها نشاط وقوة ، وفيها جمال ونضرة ، وفيها شوق مجدد الى اللهو ، وفيها نزوع مستأنف الى المجون . ولا يكاد النهار يبلغ آخره حتى يخرج من هذه الدور اشخاص فيها كثير من المرح وكثير من الفتون ، وكثير جداً من الجهل والغرور ، واذا هـــؤلاء الاشخاص يلتقون في ناديهم الذي تعودوا ان يلتقوا فيه ، فتكون الدعابة الفاترة ، وتكون الفكاهة الباردة ، ويكون المزاح السخيف ، ويكون الاقبال الفاتر على العبث الفاتر . وكلما تقدم الليل ازداد النشاط ، واشتد المرح ، وعظم الخطر من العربدة ، واخذ كل جسم من هذه الاجسام يصير ثوباً قد دخلت فيه نفس جنية طغى عليهـــا

الهوى وجمحت بها الشهوة ، واندفع بها حب الأثم الى غير حد ، واذا هم يستأنفون ليلاً كليلهم الماضي ، ويستقبلون حياة ناعمة بائسة كحياتهم الماضية ، ويعودون الى دورهم مع الصبح بقايا محطمة لا تريد شيئاً ولا تقدر على شيء ، ولا تصلح لشيء ، حتى يشتمل عليها النوم فيرد اليها شيئاً من قوة ، ثم يتناولها عمال الترف الذين يرقعون البالي ويجددون القديم ، فيعملون ويعملون ، ويحتالون ويتكلفون ، حتى يردوا هذه البقايا البالية اشخاصاً قادرة مريدة ولكنها لا تقدر إلا على الفساد ، ولا تريد إلا الاثم والمجون .

ولكنهم في هذه المرة لم يلتقوا في ناديهم ذاك الذي تعودوا ان يلتقوا فيه حين يقبل الليل ، وانما التقوا في مكان لم يكن ينتظر ان يلتقوا فيه ، ولا ان يذهب اليه واحد منهم ، فليس فيه لهو ، وليس هو مظنة للهو ، وليس فيه سمر ، ولا هو مظنة للسمر ، ومتى لها الناس بين القبور ؟ ومتى سمر الناس حول قبر لم تمض على اقامته إلا اسابيع قليلة ؟ كيف ذهب هؤلاء النفر إلى هذا المكان الموحش في قلب الصحراء ؟ وكيف التقى هؤلاء النفر حول هذا القبر الذي لم تستقر فيه صاحبته إلا منذ امد قريب ؟ هذه هي المسألة التي القاها كل واحد منهم على نفسه فوجد الجواب عليها سهلا يسيراً ، وهمّ ان يفكر فيها ويستقصي التفكير ويتعمقه ،

لولا انه لم يخلق للتفكير ولا للاستقصاء ولا للتعمق ، وانما خلق للعبث الذي لا يغني واللهو الذي لا يجدي ، والمجون الذي يفسد المروءة ويذهب بنضرة الاجسام والنفوس .

فلم يكد ثالث القوم يرى صاحبيه حتى أخذه ما أخذهما من الدهش ، وعراه ما عراهما من الذهول ، وغشيه ما غشيهما من الوجوم ، ولكنه لم يملك نفسه طويلاً ، وانما همّ أن يضحك ثم استحى من القبر ، فولى مدبراً وتبعه صاحباه حتى اذا بعدوا عن هؤلاء القوم الذين لا تزاور بينهم ولا وصل إلا ان يكون نشور ، كما يقول ابو نواس ، تساءلوا كيف كان سعيهم إلى هذا المكان ، ووقوفهم عند هذا القبر ، والتقاؤهم على غير ميعاد ؟

وقد جعل بعضهم يكذب بعضاً في شيء من الحيرة المتبلدة أو من التبلد الحائر ، ولكنهم تواصفوا ما رأوا ووازنوا بين ما سمعوا فلم يروا بداً من أن يصدّق بعضهم بعضاً ، ولم يروا بداً من أن يعترفوا بهذا الامر الغريب العجيب ، الذي كان خليقاً أن يملأ قلوبهم روعاً ونفوسهم هولاً ، لولا انهم تعودوا أن يجدوا في الكأس ما يغسل قلوبهم من كل روع ، وينفي عن نفوسهم كل هول . ولست أدري إلام صارت أمورهم جميعاً ، ولكن أعلم أن أحدهم على أقل تقدير قد أدركه ذهول يشبه الجنون ، وغفلة

تشبه الحبل ، والمت به علة لست أدري أيثبت لها أم يعجز عسى أن يقاومها ويجد إلى البرء منها سبيلاً .

وقد تسألني أنت عن سعيهم إلى هـذا المكان الموحش في الصحراء ، ووقوفهم عند هـذا القبر الذي لم يقم الا منذ أمد قريب ، والتقائهم على غير ميعاد بين هذه القبور حين أخذت الشمس تنحدر إلى مغربها ، وتجرر على هذه القبور أشعة شاحبة إن صورت شيئاً فانما تصور حزناً كأنه كان صدىً يردده الجو لهذا البلى الذي كان يعمل جاهداً فيما احتوته هذه القبور .

ولست أكره أن اقصّ عليك مصدر هذا كله ، ولكني أعتقد انك ستدهش لما أقص عليك من قصص ، وتستنكر ما أسوق اليك من حديث ، فانت وما شئت من الشك ، وأنت وما احببت من الثقة ، وانما الشيء الذي أطمئن اليه أنا كلّ الاطمئنان ، هو اني انما احدثك بشيء قـد وقع ، واصور لك في هذا الحديث امراً قد كان . وكل ما اتمنى هو الا يعرض لك مثل ما عرض لهؤلاء النفر الثلاثة الذين أفسد عليهم امرهم ما اغرقوا فيه من عبث ولهو ، وما تهالكوا عليه من اثم ومجون .

كان هذا القبر الذي التقوا عنده مستقراً لغانية حسناء رائعة الحسن ، بارعة الجمال ، فاتنة الظرف ، ساحرة الطرف ،

تعودوا ان يلقوها في تلك الدار التي كانوا يأوون اليها من آخر الليل ويستنفدون فيها ما بقي لهم من قدرة على المجون والعبث ، وكانت تلقاهم لقاء سواء ، تعدل بينهم فيما تهدي اليهم من ظرفها وخفتها ومن رشاقتها واناقتها ولباتها ، ومن هذا التودد الذي يغري ويطمع حتى يخيل الى المرء انه مشرف على الغاية ، ومنته الى الامد ، وبالغ ما يريد ثم هو لا ينتهي به مع ذلك إلا إلى اليأس المهلك والقنوط الذي يملأ القلوب لوعة وعذابا ، فكان كل واحد من خلانها يستطيع ان يتمثل قول جميل :

ومنّيتني حتى اذا ما ملكتني بقول يحل العصم سهل الأباطح
تناءيتِ عني حين لا لي حيلة وغادرتِ ما غادرتِ بين الجوانح

ولكنهم كانوا أجهل جهلا ، وأحمق حمقاً ، وأفرغ افئدة ، وأسخف عقولاً ، من ان يتمثلوا الشعر أو شيئاً يشبه الشعر ، إنما كانوا أصحاب لذة غليظة جافية يشقون لينعموا ، وينعمون ليشقوا ، ويألمون ليلذوا ، ويلذون ليألموا دون ان يوازنوا بين شقاء ونعيم ، او بين لذة وألم ، قد دُفعوا الى الحياة وما فيها من نعيم وبؤس ، فهم مندفعون الى الحياة لا يفكرون في نعيم ولا بؤس . دفعهم إلى هذه الحياة المنكرة ثراء لم يجدوا في كسبه عناء ، وتربية لم تمنحهم احلاماً راجحة ولا بصائر نافذة ولا قلوباً قادرة على ان ترتفع عن اللذات المادية

الآثمة والشهوات المندفعة الجامحة .

فكانوا اذا يلقون صاحبتهم تلك فيمن يلقون من خليلات اللهو ورفيقات العبث والمجون يجدون في هذا اللقاء حباً وبغضاً ، ورضى وسخطاً ، وانجاحاً واخفاقاً ، ولكنهم قد اتصلت نفوسهم جميعاً بهذه الفتاة اتصالاً شديداً ، وتعلقت قلوبهم بها تعلقاً عنيفاً ، واشتدت آمالهم فيها وعظم بأسهم منها حتى أخذ بعضهم ينفس على بعض ما يصدر عنها من لفظ ولحظ واشارة ، وحتى كاد بعضهم يصبح فيها لبعض عدواً . وهم على ذلك كانوا يجتمعون ويفترقون لا يزيدهم الاجتماع إلا تنافساً وتباعداً ولا يزيدهم الافتراق إلا حرصاً على التداني وكلفاً باللقاء .

وقد أخذ كل واحد منهم يظن بصاحبه الظنون ، يزعم انها تؤثر فلاناً من دونه ، ويشتد حقده على فلان ومكره به ، وكيده له حتى كاد الامر ينتهي بهم إلى اعظم الشر ، ولكن الأيام اراحتهم من هذا العناء المهلك ، فردت عنهم هذا الشر المستطير ، لأنها اختطفت من بينهم هذه الغادة الحسناء في حادثة من هذه الحوادث التي تنقل الناس من الدار الاولى إلى الدار الأخرة في طرفة عين ، فاجتمعت قلوبهم على الحزن والثكل ، وحزن هؤلاء وامثالهم لا يتصل ولا يطول ، فما هي إلا ايام حتى يستأنفوا حياتهم كما الفوها عابثة ماجنة ، وسخيفة فارغة .

ولكن احدهم يفيق من نومه مروّعاً ، مفزّعاً ، شديد الذهول ، فقد رأى طيف هـذه الغادة الحسناء يلمّ به في اثناء نومه الثقيل فيذود عنه النوم ويردّه الى يقظة شديدة ، واذا هو ينظر فيرى صاحبته كما تعوّد ان يراهـا فاتنة ساحرة تدنو منه وتتلطف له وتتودد اليـه ، وتقول له في صوتها العذب الذي يسحر القلوب : ما كنت احسب انك ستتركني حيث انا وحيدة مستوحشة لا تهدي إلي زيارة ولا تحدث بي عهداً ... ما اسرع ما نسيتني واني على ذلك لم انسك ، ولا يمكن ان انساك ، ألمم بداري قبل ان يقبل الليل ، ثم تنصرف عنه ، وينظر فلا يرى شيئاً ، ويتسمع فلا يسمع شيئاً ، وينهض فيستأنف حياته كما تعود ان يستأنفها كل يوم ، لا يلقي بالاً إلى ما رأى ، ولا يلقي بالاً الى ما سمع ، فاذا كان الغد جـاء الطيف كما جاء أمس ، وتحدث اليه بمثل ما تحدث به أمس .

وقد تكررت هذه الزيارة مرة ومرة حتى لم يشك في أن من الحق عليه أن يلم بهـذا القبر وأن يهدي إليه تحيته في طاقة من الزهر . وقد فعل فلم يكد يبلغ القبر حتى رأى صاحبه ، ولم يكد يقوم على القبر مع صاحبه حتى أقبـل صاحبهما الثالث . فلمـا انصرفوا عن القبر قص أحدهم على صاحبه ما رأى وما سمع ، فاذا كل واحد منهما قـد رأى

مثل ما رأى ، وسمع مثل ما سمع ، وأبطأ مثل ما أبطأ، ثم أقبل على القبر كما أقبل عليه يحمل إليه التحية وطاقة من الزهر .

أتراها أرادت ان تستبقي بينهم المنافسة والخصام بعد موتها ، وان تضطرهم الى ان يحفظوا لها من الود مثل ما كانوا يظهرون لها قبل ان تموت ، أم تراها اضغاث احلام قد عبثت بنفوس هؤلاء النفر الثلاثة ؟ ولكن كيف يتفق ان يلم الطيف بهم في يوم واحد ويتراءى لهم في صورة واحدة ويلقي اليهم حديثاً واحداً ويضرب لهم موعداً واحداً ؟

قلت لصاحبي حين انتهى من حديثه الى هذه الاسئلة : لا أدري ، ولا استطيع ان افتح عليك ، فسل من شئت من الجامعيين الذين يدرسون دقائق علم النفس فلعلك تجد عندهم غناء .

١٩٤٥

ضمير حائر

•

آوى الى سريره راضياً ناعم البال ، وهبّ من سريره موفوراً طيب النفس ، ونام بين ذلك نوماً هادئاً هانئاً لم تنغصه مروعات الاحلام ، ولم يكد يخرج من غرفته حتى تلقاه الصبية من بنيه وبناته بوجوه مشرقة تتألق فيها نضرة النعيم ، وثغور جميلة تبسم عن مثل اللؤلؤ المنضود ، وحملت اليه اصواتهم الرخصة العذبة تحية الصباح فردها عليهم في صوت حلو يجري فيه الحزم الصارم ويشيع فيه الحنان الرفيق ، وأنفق معهم ساعة حلوة يداعب هذه ويلاعب ذاك ، ثم خلص منهم بعد جهد ، وفرغ لنفسه ليصلح من شأنه قبل ان يغدو الى عمله ، وكان عمله خطيراً ، وكان اهتمامه لهذا العمل وعنايته به أعظم منه خطراً لانه كان قوي الضمير حريصاً اشد الحرص على اداء الواجب كاملاً ، وكان أبغض شيء اليه ان يتهمه احد او ان يتهم هو نفسه بأيسر التقصير .

ولم تكن عنايته بحسن زيه وجمال شكله اقل من عنايته بالعمل والواجب ، فقد استقر في نفسه منذ بلغ الشباب ان من كمال المروءة ان يكون الرجل حسن المنظر جميل الطلعة ، ما وسعه ذلك ، وان تقع عليه العين فلا تقتحمه ، وتبلغه الابصار فلا تزورّ عنه ولا تعدوه الى سواه . ذلك ادنى ان يحببه الى النفوس ، ويحسّن مكانه في القلوب ، ويجعل محضره خفيفاً ، وعشيرته شيئاً يُطلب ويرغب فيه .

وكان الله قد منح صاحبنا حظاً من جمال الخلقة ، وخلقه في تقويم حسن ، فزاده ذلك عناية بنفسه واهتماماً بمنظره ، وشجعه الناس على ذلك بما كانوا يهدون اليه من ثناء ، وشجعه النساء خاصة على ذلك بما كنّ يحمدن من صورته الرائعة وزيه الانيق وحسن تلطفه في اللقاء والعشرة والحديث ، كل ذلك فرض عليه العناية بجسمه وزيه وشاربه اكثر مما تعود الناس ان يصنعوا ، فكان يخلو في غرفته كل صباح ، وكان يخلو في غرفته كل مساء وقتاً غير قصير ، ثم يخرج من غرفته ليغدو الى عمله او ليروح الى ناديه ، فلا يكاد اهله يرونه حتى يحدث منظره الرائع في نفوسهم فجاءة جديدة ، على كثرة معاشرتهم له ومخالطتهم إياه .

وقد خلا في ذلك الصباح الى نفسه في غرفته فأطال الخلوة ، وغيّر وبدل من زيه ما استطاع التغيير والتبديل ،

حتى اذا اعدّ نفسه للناس او اعتقد انه أعدّ نفسه للناس ، وهمّ ان يخرج القى الى المرآة هذه النظرة السريعة الخاطفة التي كان يلقيها اليها دائماً كانما يسألها رأيها الاخير قبل ان يخرج للقاء الناس . وكان رأيها الاخير دائماً حسناً مقنعاً يشيع في نفسه شيئاً من الرضى الهادىء والثقة المنتظرة . ولكن رأي المرآة الاخير في ذلك الصباح لم يكن حسناً ولا مقنعاً ولا مشيعاً للرضى والثقة ، وانما كان مزعجاً مروعاً . فلم تكد عينه تبلغ المرآة حتى ارتدت عنها مذعورة ، ثم عادت اليها مشفقة ، وارتدت عنها وقد نقلت الى قلبه ذعراً يبلغ الهلع ، واذا هو يرتدّ عن مكانه ، ويرجع ادراجه مسرعاً ، ويحوّل وجهه عن المرآة تحويلاً تاماً حتى لا تخطىء عينه فتمتد اليها مرة اخرى . وقد اخذ قلبه يخفق خفقاً شديداً سريعاً متصلاً ، واخذت جبهته تنضح بشيء من عرق بارد ، واخذت قطرات من هذا العرق تنطبع على وجهه ، وجعل الدوار يعبث به وبكل شيء من حوله حتى خيل اليه ان الغرفة كلها قد استدارت فأصبحت المرآة وراءه ، واصبحت هذه المائدة التي كان يجلس اليها ليصلح من شأنه ، امامه . واذا هو مضطر الى ان يتماسك ويتمالك ، واذا هو عاجز عن ذلك ، فيجلس على اول كرسي يبلغه مضطرباً ممعناً في الاضطراب ، حائراً لا يكاد يتبين حيرته ولا يكاد يتبين مصدرها . ومع

ذلك فقد كان مصدر هذه الحيرة يسيراً جداً غريباً جداً في وقت واحد . كان يسيراً لانه لم يكن الا ما رأى في المرآة ، وكان غريباً لأنه لم ير في المرآة وجهه وانما رأى اقبح وجه يمكن ان يكون الله قد خلقه وابشع منظر يمكن ان يمتحن الله به الناس او القرود . وقد طال جلوسه على كرسيه ، وإطراقه الى الارض ، واغراقه في الحيرة ، ثم اخذ جسمه يهدأ شيئاً فشيئاً وجعل قلبه يستقر في صدره قليلا قليلاً ، وامتدت يده فاترة الى منديلٍ أمرّه على وجهه فجفف به العرق ، وارتسمت على ثغره ابتسامة هادئة فيها شيء من غموض وشيء من رضى ، فقد ثابت نفسه اليه وجعل يسخر من هذا الروع الذي ألمّ به ، فأكبر الظن ان شيئاً من علة قد ألمّ بمعدته فأفسد عليه مزاجه شيئا ما ، ثم انشأ يسأل نفسه عما طعم أمس وعما شرب ، فلم ينكر من طعامه ولا من شرابه شيئاً . فقد طعم أمس وشرب كما كان يطعم ويشرب كل يوم ، ولكنّ بمعدته شيئاً من غير شك ، هو الذي خيّل اليه ما خيل حين مد عينه الى المرآة . ومن المحقق انه لم يكن يحسّ ألماً ولا يشعر بشيء مما يشعر به المرضى حين يطرأ عليهم المرض ، ولكن لا سبيل الى تعليل هذه الظاهرة الطارئة الا بشيء اصاب معدته او كبده ، وهو على كل حال قد استرد شيئاً من طمأنينته ، فعاد الى شأنه يصلح منه

ما افسد هذا الاضطراب ، فلما بلغ من ذلك ما ارضاه ازمع ان يخرج من غرفته دون ان يسأل هذه المرآة المشئومة عن شيء . ولكن الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس القى في روعه مع كثير من اللباقة والمكر ان من الحق عليه ان يسأل هذه المرآة التي تعوّد ان يسألها دائماً ، والتي تعودت ان تصدقه دائماً ، فمن يدري لعل شيئاً ألمّ به فغير من وجهه وشكله وهو لا يدري ؟ وما ينبغي ان يظهر الناس منه على ما لا يجب ان يظهروا عليه . وقد القى نظرته إلى المرآة فارتدّت عينه مذعورة ثم عادت الى المرآة مشفقة ، ثم ارتدت وقد حملت إلى قلبه جزعاً وهلعاً ، واذا هو يجاهد ليحبس صيحة قد همت ان تخرج من حلقه فتملأ الغرفة من حوله وتدعو اليه أهل الدار . ولكنه ردّ هذه الصيحة الى مستقرها ولم يتح لها ان تنفجر ، واستأنف اضطرابه ذاك . ثم ثابت اليه نفسه بعد لأي فيسرع الى الجرس يدقه ، فاذا دخلت عليه الخادم رفع اليها وجهه وظل صامتاً حينا يريد ان يعرف أتنكر الخادم من امره شيئاً ، فلما رأى الخادم كدأبها كلما دعاها اليه قائمة واجمة تنتظر امره لا تنكر شيئاً ، ولاتعرف شيئاً ، أولا تظهر معرفة ولا انكاراً ، قال لها في صوت هادىء يكاد يضطرب : أنبئي سيدتك اني انتظرها . وأقبلت زوجه بعد حين فرأته قائماً باسماً ينتظر

مقدمها ، فلما رأته اخذها منظره كما تعوّد ان يأخذهـا كل صباح وكل مساء وسألها هو أتنكرين من امري شيئاً ؟ قالت متضاحكة : وماذا تريد ان انكر من امرك ! انما انت كما تعودت دائماً ان أراك رائع الشكل ، جميل المنظر ، خلاب للنساء . إلى اين تريد ان تغدو اليوم ، فأني أراك تكلفت عناية بزيك فلما تتكلفها ؟ قال والى اين اغدو الا إلى عملي ؟ قالت فان عملك لا يحتاج إلى كل هذا التأنق . ولكنه أعاد عليها قوله : اني الحق انك لا تنكرين مني شيئاً ! قالت مغرقة في الضحك : في الحق اني انكر منك هـذا الاسراف في التجمل . قال في شيء يشبه الذهول : ان هذه المرآة تنبئني بغير ما تقولين . ثم القى على المرآة نظرته الخاطفة تلك وارتد عنها وجلا مذعوراً يقول لامرأته التمسي لي طبيباً .

وقد عاده طبيب وطبيب وطبيب ، عـادوه متفرقين وعـادوه مجتمعين ، وفحصوا من جسمه كل ما يمكن ان يفحصوا ، فلم يروا به بأساً ، ولم يشخصوا له علة ، ولم يصفوا له دواء ، وقال له قائلهم مـا نرى بجسمك من بأس فالتمس دواء نفسك عنـد نفسك ، فما نظن إلا ان في ضميرك شيئاً يؤذيك على علم منك او على غير علم . وقد غيرت المرآة في غرفته مرة ومرة ولكن المرايا كلها جعلت كلما التمس نفسه فيها ردت اليه صورة غير صورته وشكلا غير شكله ، وملأت قلبه

فرقاً وروعاً . وقد تسامع أعوانه واصحابه بأنه مريض منذ لزم غرفته وانقطع عن عمله فجعلوا يسعون اليه ليعودوه ، يلقاه اقلهم ، ويرد عنه اكثرهم ، وينبأ اولئك وهؤلاء من امره بغير الحق ، تخترع لهم العلل ، وتبتكر لهم الادواء ، فيصدق منهم من يصدق ، ويكذب منهم من يكذب ، ويشك منهم من يشك . وكنت من هؤلاء الاصدقاء الذين سعوا اليه وسألوا عنه ، ثم اتيح لهم ان يروه . وكنت اثيراً عنده كما كان اثيراً عندي ، لا اخفي عليه من ذات نفسي شيئاً ، كما لا يخفي عليّ من ذات نفسه شيئاً . وقد لقيته فيمن لقيه من اصحابه ذات يوم ، فسمعنا منه ، وقلنا له ، وضربنا معه اخماساً لاسداس في امر علته ، نصدق نحن في حيرتنا ، ويتكلف هو لنا الحيرة تكلفا لا يكاد يخفى عليّ . فلما هممنا ان ننصرف استبقاني في لباقة وظرف ، فبقيت ومضى الحديث بيننا الواناً ساعة من نهار ، ثم عدنا إلى علته فاذا هو يتحدث إليّ بأمره كله في وضوح وجلاء .

قلت ضاحكاً : ألعلك قرأت هـــذه القصة الانجليزية التي كتبها اوسكار ويلد وسماها صورة دوريان جري فان فيها ما يشبه قصتك من بعض الوجوه . قال فانك تعلم اني لا أقرأ الانجليزية ولا أقرأ لغة اوروبية ، ولا اعرف ان هذه القصة قد نقلت الى العربية . قلت او لم يتحدث اليك قط

متحدث عن هذا الكتاب وكاتبه ؟ قال سمعت اطرافاً من الحديث عن اوسكار ويلد ، ولكن لم اسمع عن هذا الكتاب من كتبه قليلاً ولا كثيراً . فحدثني انت عن هذا الكتاب . قلت لقد قرأته منذ زمن بعيد واذكر انه يعرض على قرائه قصة فتى حسن رائع الحسن ، جميل بارع الجمال ، اتخذ له صديق مصور ، صورةً تطابق شكله جمالا وروعة ، وقد اقترف هذا الفتى في مستقبل ايامه سيئات كثيرة ، واجترح آثاماً مختلفة ، فبغضت اليه نفسه أشد البغض ، وقبحت صورته المصنوعة في عينه اشنع القبيح ، فنفاها من حجرات داره وغرفاته الى حيث يُنفى سقط المتاع . ولكنه كان يلم بها من حين الى حين تزيُّداً من بغضه لها وسخطه عليها ، واستعذابا لهذا السخط وذلك البغض . ثم اصبح الناس ذات يوم فرأوه مقتولا إلى جانب صورته ، اراد ان يمزق الصورة فمزق صدره . وقد اراد اوسكار ويلد فيما اظن ان يصور تأثير الندم على ما يقترف من الآثام في بعض الضمائر والنفوس ، فلم تكن هذه إلا مرآة لضمير دوريان جري ، رأى فيها ما كان يملأ ضميره من السيئات المنكرة والجرائم البشعة .

قال صاحبي في صوت يأتي من بعيد : وما انا وهذه القصة ؟ قلت في صوت يأتي من بعيد ايضاً : خشيت ان

تكون قد قرأتها او سمعت عنها فأثرت في اعصابك تأثيراً سيئاً ، فما اكثر ما تؤثر الكتب قيمها وسخيفها في اعصاب الناس ، فتحملهم على غير ما اراد المؤلفون ان يحملوهم عليه .

قال صاحبي : وعلى ثغره ابتسامة حزينة : هوّن عليك فاني لم أقرأ هـــذا الكتاب ، ولم اسمع عنه ، ولم اتأثر به قليلاً ولا كثيراً ، ومع ذلك فان من حقه ان يقرأ ، قلت — وقد ندمت بعد ذلك على مـا قلت — فالتمس في اثناء نفسك وأحناء قلبك خطأ لعلك قد دُفعت اليه او مساءة لعلك قد قدمتها الى بريء . فاني اعـــلم أنا نجهل من امر الضمير الانساني اكثر مما نعلم . ومن يدري لعل في ضميرك الخفي ندماً على شيء اتيته ثم انسيته ، ولعلك ان استكشفته ان تصلحه وتستغفر الله منه ، فثقل هذا الندم الذي اخشى ان يكون هو الذي ينغص عليك الحيـــاة . وتركت صاحبي حائراً مبهوتاً ثم أنبئت بعد أيام أنه يمرّض في بعض المستشفيات فلما سألت عن جلية ذلك قص عليّ محدثي عجباً من الأمر . فقد كان صديقي هذا البائس من قوم كرام مات أكثرهم وبقي أقلهم . وكان الذين ماتوا رحمهم الله يرتفعون عن الصغائر ، ويمتنعون على الدنيات ، وتأبى نفوسهم فيما تأبى جحود العـارف وانكار الجميل . ورثوا ذلك عن آبائهم ، واحبوا ان يورثوه أبناءهم ، فحال بينهم وبين ذلك هذا التطور الحديث

الذي غيّر مقاييس الاشياء وادار أعمال الناس وأقوالهم على المنافع العاجلة والمآرب القريبة ، لا على ما كان يألف آباؤنا من رعاية الحق ، وتقدير المعروف . وكان صديقي هـذا البائس احرص الناس على ان يشبه الذين سبقوه من قومه في كل ما كانوا يأتون ويدعون من الامر ، ولكن احداث الدهر وخطوب الايام ومـا تحمل من رغبة ورهبة ، ومن اغراء وتنفير ، كانت أقوى من خلقه وارادته ، فلم يستطع ان يكون خليقاً بالذين سبقوه من قومه ، وانما كان خليقاً بالذين عاصروه من اترابه . كان قومه يستحيون من انفسهم قبل ان يستحيوا من الناس ، وكان هو يستخفي من الناس ولا يستخفي من ضميره ولا من الله وهما معه أينما كان ، فلما قصصت عليه قصة اوسكار ويلد كنت كأنما كشفت عن نفسه الغطاء ، فأصبح يتحدث الى امرأته والى خاصته بأن هذا الوجه القبيح الذي كان يراه في المرآة لم يكن وجهه ، فوجهه ما زال جميلاً رائعاً وانما هو مرآة ضميره لان ضميره بشع دميم .

ثم يمضي في حديثـه فيقول : لا تنكروا مما اقول لكم شيئاً ، فاني لا ارى هذا الوجه البشع اذا نظرت في المرآة فحسب ، بل انا اراه كلما خلوت الى نفسي . اراه يحمله جسم كجسمي ، واراه يجلس اليّ غير بعيد ينظر اليّ شزراً اول الامر ، ثم لا يزال يرفق بي ويظهر الرقـة الي حتى اطمئن

اليه فيحدثني في صوت هادىء رقيق عن سيئات تقدمتُ بها الى النـــاس فيما مضى من الدهر ، ثم يقول لي في صوت هادىء يخيفني أشد الخوف : ليتك لم تفعل فقد كنت اراني جميلًا فجعلتني قبيحاً بشعـــاً ، وكنت اراني سعيداً فجعلتني شقياً بائساً ، فقد احتملت وحدي قبحي وبشاعتي وشقـــائي وبؤسي ، ثم اعياني احتمال هذا الثقل فرأيت ان تشاركني في النهوض به ، فسألزمك منذ الآن كما يلزم الظل صاحبه ، وأي غرابة في ان يلزم الضمير صاحبه ؟ وكان صديقي البائس يقول ذلك لاهله وخاصته في صوت غريب يملأ قلوبهم خوفاً وإشفاقاً ورحمة وعطفـــاً ، ثم كان يلح عليهم في ألا يخلوا بينه وبين نفسه فلزموه واطالوا البقـــاء معه . ولكن بغضه لظله هذا او لضميره هذا جعل يعظم ويشتد كما ان حب ظله وضميره له جعل يعظم ويشتد ايضاً . فقد رأى ضميره في المرآة اول الامر ، ثم جعل يراه في الخلوة بعد ذلك ، ثم اصبح يراه حين يخلو الى نفسه وحين يحيط به اهله وخاصته ، واذا امره ينتهي به الى الجنون الثائر او الى ما يشبهه ، واذا اهله مضطرون الى ان يمرضوه في بعض المستشفيات التي تعالج فيها الاعصاب المريضة .

ليتني لم اكشف لصاحبي عن نفسه الغطاء ... استغفر الله ماذا اقول ؟ وهل يزيد الكتاب على ان يكشفوا للناس عن نفوسهم الغطاء !

اكتوبر ، ١٩٤٤

الضمائر القلقة

•

يظهر ان في الضمير المصري شيئاً من قلق يحتاج ان يعنى به الذين يهمهم ان يكون الضمير المصري راضياً مطمئناً، وآمناً مستريحاً. فقلقُ الضمير مصدر شر كثير أيسره فتور العزم، وكلال الحد، والتردد بين الاقدام والاحجام حين تقتضي ظروف الحياة ان نختار بين الاقدام والاحجام. ويكفي ان نلاحظ الفرد ذا الضمير القلق والنفس المضطربة لنعلم انه لا يصلح لشيء حتى يردّ إلى ضميره الاستقرار وإلى نفسه الاطمئنان، فكيف إذا كان هذا القلق شائعاً وهذا الاضطراب شاملاً، وكيف إذا أحس الشعب أنه لا يستطيع ان يثق بشيء، ولا ان يركن إلى شيء، ولا ان يقدم عن بصيرة، ولا ان يحجم عن روية، ولا ان يحكم على الاشياء والاحياء حكما يصدر عن التدبر والتفكير.

ما أحب ان أطيل في المقترحات ولا ان أسلك إلى ما

أريد طريقاً ملتوية ، وانما ألاحظ ان شيئا من الريب قد شمل الناس جميعا ، فليس من كلمة تقال إلا اعتقد الناس ان لها ظاهراً وباطناً ، وان لها معنى قريباً يُتخذ وسيلة إلى معنى بعيد ، وغاية يسيرة تخفي وراءها غاية عسيرة . وليس من عمل يقدم عليه مقدم الا وله غرض يقصد اليه في العلانية ، وغرض آخر يقصد اليه في السر الخفي ، واذن فقد عجز الناس عن ان يصدق بعضهم بعضاً ، أو أن يأمن بعضهم الى بعض ، فضاعت بينهم الثقة ، وشق عليهم التضامن ، واضطروا الى حياة منكرة فيها كثير من الشك ، وكثير من الخوف ، وكثير من سوء الظن الذي أوشك ان يصبح أصلا من أصول الحياة ، وقاعـــدة من قواعد التعامل بين الناس .

وإذا بلغ الشعب هذه المنزلة من القلق كان خليقاً ان يتعرض لشر عظيم ، وكان حقـــاً على الذين يدبرون أمره ويقودون الرأي فيه ان يطبُّوا لهـذا الداء ما وجدوا الى الطب سبيلاً . وقد اردت حين هممت بهذا الحديث ان اقصد الى شيء من الفكاهة والدعابة ولكن وجدت الامر أجل خطراً من الفكاهة والدعابة فقصدت به الى هذا الجد المر الذي قد يضيق به الكتاب والقراء في هذه الايام .

لم اكـــد أنشر الحـــديـــث الاول من هـــذه الاحاديث حتى احسست حولي سؤالا يلقيه بعض الناس الى

بعض ، ويجيب بعضهم بعضاً بما يخطر له ثم يتجه الي السؤال فاعرض عنه ، ثم يتجه الي في إلحاح فألح في الاعراض ، واقول لنفسي حديث نشر بعد ان طال الصمت ، وبعد ان كنت منصرفاً الى بعض الاعمال العامة ، فصُرفت عنه فليس من الغريب ان يذهب الناس فيه المذاهب ، وان يلتمسوا له ألوان التأويل ، وان يتخذوا منه ثوباً يفصلونه على قدّ هذا او ذاك من الذين ينهضون بالاعمال العامة ، او يشاركون فيها . ولكني لم انشر الحديث الثاني حتى ازداد السؤال انتشاراً وازداد السائلون إلحاحاً ، وجعل الاصدقاء وذوو المعرفة يعرضون لي حين يلقونني بما فهموا او بما خيل اليهم انهم فهموا .

ثم امضي في الكتابة ويمضي الناس في التساؤل ثم لا يقف الأمر عند التساؤل والالحاح فيه ، وانما يختلف الناس فيما بينهم ويغلون في الاختلاف ، ويريد بعضهم ان يحتكم الي ، ويجد عندي حلاً لهذه الرموز ، وتوضيحاً لهذه الالغاز . ويتصل بعضهم بي يسألني ان اريحه من هذا التعب الذي اضطررته اليه . ويتجاوز بعضهم هذا كله فيكتب الي الرسائل ينبئني فيها بما يعلم من حياة فلان وفلان ، ومن خصال فلان وفلان ، وبما يُظهر فلان للناس ويخفي عليهم ، ويطلب الي ان اصدر هذا في حديث من هذه الاحاديث التي تنشر

في « البلاغ » .

ثم الاحظ ان الامر ليس مقصوراً عليّ ولا على هـذه الاحاديث التي اذيعها ، ولكنه يتجاوزني ويتجاوز احاديثي الى قوم اخرين واحـاديث اخرى تنشر في الصحف اليومية والأسبوعية ، والى قوم آخرين واحاديث اخرى تجري على السنتهم حين يلقى بعضهم بعضاً . فقد كتب فلان هـذه الاسطر في هذه الصحيفة او تلك وهو قد اراد بها إلى هذا الغرض او ذاك ، واراد بها الى ان يمسّ فلاناً من قريب او بعيد ، ولمح بها الى موقف فلان في السياسة ، او موقف فلان في الادارة ، او موقف فلان في البيع والشراء . حتى استيقن الناس جميعاً انهم لا يتبادلون الحديث بينهم إلا رمزاً ، وان الصراحة والوضوح والجلاء كل هذه امور قد بعُدَ العهد بها حتى نسيت او كادت تنسى .

وليس موقف الناس مما ينشر او يقال باقل تحفظاً واحتياطاً من موقفهم بازاء ما يأتيه الساسة من الاعمال او ما يكون بينهم من التزاور والتواصل ، او مـا يكون بينهم من التنافر والتقاطع . ومن المحقق ان الامر ليس مقصوراً على رجال السياسة وأشباههم من الذين ينهضون بالاعمال العامة ، ولكنه يتناول ما يكون بينهم من صلات في حياتهم الخاصة . فالزملاء في ديوان من الدواوين او معهد من معاهد التعليم

يشك بعضهم في بعض ، ويسيء بعضهم الظن ببعض ، ويحتاط بعضهم من بعض ، قد تعقدت منافعهم ، وارتبكت مصالحهم ، وقرّب الرؤساء بعضهم وابعدوا بعضهم الاخر ، فساء ظن أولئك بهؤلاء ، واحتاط هؤلاء من اولئك ، وارتاب الرئيس بهم جميعاً ، وجرت أحاديثهم حين يتحدثون على الشك والخوف ، وجرت صلاتهم حين يتواصلون على الحيطة والتحفظ ، واصبحت حياتهم شيئاً لا يطاق .

ولست أدري — بل لعلي أدري — ولعل كثيراً من الناس يدرون ما مصدر هذا القلق ، وما أصل هذا الريب . فقد دفعتنا هذه الاعوام المتصلة الى ألوان من الحياة لم نكن نألفها ولا نطمئن اليها . واولها واظهرها هذه الاحكام العرفية التي اقتضتها الحرب والتي استتبعت مراقبة الصحف ، والتي القت في روع الناس جميعاً ان أمورهم لا تجري على ما تعودت ان تجري عليه قبل ان تعلن الاحكام العرفية ، وقبل ان تُفرض الرقابة على الالسنة والاقلام . ومما لا شك فيه أنّ الاحكام العرفية لم تشمل حياتنا كلها ، ولعلها لم تشمل إلا أقلها ، ولكن الناس قد فرضوا فيما بينهم وبين انفسهم انها قد شملت كل شيء . ومما لا شك فيه ايضاً ان مراقبة الصحف ان اشتدت على الانباء الخارجية والداخلية فانها لم تكلف الادباء من امرهم شططا حين ارادوا ان

يعرضوا للادب الخالص او حين ارادوا ان يمسوا الامور العامة مساً رفيقاً . فمن حق الصحف ان تضيق بالرقابة ، ومن حق الناس جميعا ان يضيقوا بها وبالاحكام العرفية ، ولا سيما حين يتصل الخضوع لها والاكتواء بنارها . ولكنها على كل حال لا تكفي لتشيع هذا القلق بين الناس وتملأ نفوسهم شكاً وريباً ، وتجعل سوء الظن أصلاً من أصول الحياة . غير ان الناس لم يخضعوا منذ أعلنت الحرب للاحكام العرفية والرقابة وحدها ، وانما خضعوا لأشياء أخرى لعلها ان تكون أبعد من ذلك اثراً في اشاعة القلق والريب ، خضعوا لحياة الحرب نفسها وما تفرضه من الغموض في أنباء الحرب والسياسة ، وما تقتضيه من هذه الاحاديث المتناقضة التي يكذب بعضها بعضاً والتي تذاع في الراديو كل يوم ، وما تقتضيه من هذه الاشارات الغامضة التي تنشر في الصحف والمجلات حتى تعوّد الناس ان يسمعوا النبأ فلا يصدقوه ، أو ان يسمعوا النبأ فيستنبطوا منه غير ظاهره وربما استنبطوا منه نقيضه ، وحتى تعلّم الناس ان يقرأوا بين السطور وان يسمعوا بين السطور ، إن امكن ان يسمع الناس بين السطور .

فاتصال هذه الحال التي تخلط بين الصدق والكذب ، وتغلب الكذب على الصدق احيانا ، وتذيع المتناقضات في غير انقطاع ، خليق ان يدفع النفوس الى الريب ويعدّها لسوء الظن . ثم

خضع الناس بعد ذلك او مع ذلك في حياتهم العامة والخاصة لخطوب ثقال . فاهوال الحرب من جهة ، ومصاعب الحياة الاقتصادية من جهة اخرى ، والتغييرات السياسية من جهة ثالثة ، والبؤس والحرمان اللذان ينتهيان الى الجوع والشقاء في بعض الطبقات من جهة رابعة ، كل ذلك خليق ان يعقد منافع الناس أشد التعقيد ، وان يقوي الاثرة في نفوس الافراد والجماعات ، وان يضطر كل واحد من افرادهم وكل جماعة من جماعاتهم الى الاحتياط للنفس ، والاستكثار من الخير ، والاستعداد للمستقبل ، والتحفظ من الطوارىء ، والتخلص من المشكلات ، والنفوذ من الخطوب . فليس غريباً ان يدفع هذا كله الناس الى حياة لا تقوم على امن الضمائر واطمئنان القلوب ، ولا تقوم على الثقة والصراحة ، وانما تقوم على القلق والخوف ، وتقوم على الشك والحذر ، ولعلها ان تقوم على الكذب وعلى اخلاق اخرى تتصل بالكذب من قريب او بعيد .

فاذا اضفت الى هذا كله حياتنا السياسية الخاصة وما يشوبها من هذا العنف الذي يدفع الى التكلف ، ويسوق الى سوء الظن ، ويحمل على المبالغة والتكثر ، ويغري بخلق الاشاعات واذاعة المنكر من القول ، ويحرص على تشويه الحسن وتحسين القبيح ، وإذا اضفت إلى هذا وذاك ان المثقف المصري محدود الثقافة ، متوسط العلم في اكثر الاحيان ،

وانـــه من اجل ذلك مستعد للتصديق والتكذيب في غير مقاومة أو في مقاومة ضئيلة ، أقول إذا أضفت بعض هذا كله إلى بعض استطعت أن تحقق اسباب هـذا القلق الذي يشمل الضمير المصري في هذه الايام ويوشك أن يدفعه إلى خطر عظيم .

والشيء المحقق هو أن هذا التساؤل الذي اشرت اليه في أول هذا الحديث ان دل على شيء فانما يدل على ظاهرة مؤلمة حقاً ، وهي ان رأي الناس قد ساء في الناس . فلا تكاد تذكر رجلا حائر الضمير حتى يحس كثير من الناس أنه المعنيّ بهذا الضمير الحائر ، ومصدر ذلك أنه يجد فيما بينه وبين نفسه أن ضميره مضطرب في شيء من الحيرة ، وحتى يسأل النـاس بعضهم بعضاً ألا يمكن ان يكون صاحب الضمير الحائر فلاناً او فلاناً لانهم يعتقدون ان فلانـــاً او فلانـــاً يمكن ان يكونا من اصحاب الضمائر الحائرة . ولا تكاد تعرض صورة الرجل الذي يشبه الثعبان أو يشبه الثعلب أو يشبه ما شاء الله من هـــذا الحيوان المقيم في حديقة الحيوان حتى يحس كثير من الناس انه هو المعنيّ بهذه الصورة ، المراد بهذا الاسم . ومصدر ذلك أنـه يجد فيما بينه وبين نفسه أن في أخلاقـــه وخصاله شيئاً من أخلاق الثعبان أو من أخلاق الثعلب او من اخلاق ما شاء الله من

الحيوان ، وحتى يخلع القراء من عند انفسهم هذه الصورة أو تلك على هـــذا الرجل او ذاك لانهم يرون في اخلاقه شيئاً من اخلاق الثعلب أو الثعبان .

ومن العسير أن تقنع القراء بان الكاتب ان عرض صورة بعينها فهو لم يرد شخصاً بعينه ، ولعـــله يكون قد كوّن صورته هذه من أشخاص كثيرين يأخذ من أخلاق كل واحد منهم طرفاً ثم يضيف هذه الاطراف بعضها الى بعض فينشيء منها صورة قد تعجب أو لا تعجب . ولكنها لا تخلو من عبرة وموعظة ولعلها أن تحمل الناس على ان يصلحوا من أمورهم ويخفوا من شرورهم . فمن وجد في نفسه شيئاً من أخلاق الثعبان اصلحه وأخفـــاه فكف شره عن الناس قليلاً او كثيراً ، وكف شر الناس عنه قليلاً او كثيراً . وقل مثل ذلك فيمن يجـــد في نفسه شيئاً من خصال الثعلب او من خصال العقرب ، او مـــن خصال الذباب .

والله قد خلق الاشياء كلها لتكون موضعاً للعظة ، ومصدراً للعبرة ، ووسيلة الى استكشاف الحق والخير والجمال . والله عز وجل قد خلق الانسان وعلمـــه البيان ليكشف الحق والخير والجمال ويدل عليها ، وليستكشف الباطل والشر والقبح ويرغب عنهـــا . فليكتب الكتاب ، وليقرأ القراء ، وليسأل

السائلون ، وليجب المجيبون فليس بشيء من هذا كله بأس . وانما البأس الذي يجب ان نعاون جميعاً على علاجه واستئصاله هو هذا القلق الذي شمل الضمير المصري ، والذي يوشك ان يدفعه الى اكثر من السؤال والجواب .

١٩٤٥

في الذوق

•

يقال ان الذوق ملاك الحضارة المترفة ، ويقال من أجل ذلك إنه يوجد ويقوى ويشيع حيث يتاح للحضارة أن ترقى وتترف وتبسط سلطانها على النفوس . ويقال انه من أجل ذلك يوجد في المدن أكثر مما يوجد في القرى ، ويوجد في العواصم اكثر مما يوجد في مدن الأقاليم ، ويوجد في القصور أكثر مما يوجد في الدور ، ويوجد في الدور اكثر مما يوجد في الاكواخ !

يقال هذا ويقال شيء كثير غير هـذا حول الذوق ، فالذوق يكون في الأدب والفن ، والذوق يكون في الحياة الاجتماعية اليومية ، والذوق يكون خصلة من خصال الفرد المترف الممتاز ، ويكون خصلة من خصال الجماعة المثقفة المهذبة ، ويكون خصلة من خصال الشعب الذي عظم حظه من الحضارة وإمعانه فيها . . ويظهر ان المصريين قد

سبقوا غيرهم من الشعوب الى الحضارة وضروب الترف ، فكان حظهم من الذوق عظيماً ، وقسطهم منه موفوراً . . يقول المصري عن المصري اذا أراد أن يمدحه انه صاحب ذوق ، ويقول المصري عن المصري اذا أراد أن يمدحه أيضاً إنه « رجل ذوق » بالاضافة ، ورجل ذوق بالوصف ! ويقول المصري عن المصري اذا أراد أن يعيبه إنه قليل الذوق ، وعديم الذوق ، ويقول الرجل من أهل القاهرة لصاحبه اذا فعل أو همّ أن يفعل شيئاً لا يليق : « استذوق » يريد ان يقول له اصطنع الذوق وتجنب ما من شأنه ان يغضّ من ذوقك أو من امتيازك في الحضارة المترفة المهذبة التي تتيح للناس أن يعاشروا الناس ، وأن يجدوا في معاشرتهم راحة ولذة وسروراً !

ويعرف بعض المعاجم الذوق بأنه ملكة طبيعية تسبق التفكير وتعين على تمييز الجيد من الرديء ، والحسن من القبيح ، وما يليق مما لا يليق .

ويقول هذا المعجم إن لكل انسان من هذا الذوق حظاً ، ولكن هذا الحظ يقوى ويضعف باختلاف ما يكون عليه الانسان من ثقافة وحضارة واتراف في العقل والقلب والضمير . . ويقال كذلك إن الذوق يتغير بما يصيب الحضارة من تطور فيفسد بعد صلاح ، ويقبح بعد حسن ،

ويشيع فساده وقبحه بمقدار ما يصيب الحضارة من ضعف وانحطاط !

•

واكثر ما يفسد الذوق حين يطرأ على الحضارة المستقرة المطمئنة التي بعد بها العهد وألفتها النفوس وتوارثتها الأجيال ، طارىء عارض عنيف يغير من سيرة الناس في حياتهم المادية أولاً ، ثم في حياتهم العقلية بعد ذلك .

فالرجل المترف من أهل القاهرة في أول هذا القرن كان قد ورث عن أسرته ألواناً من الأخلاق والعادات تأثرت بها سيرته فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين أهله ، وفيما بينه وبين الناس . فهو لا يظهر لأهله إلا في لون معين من لبسة المتفضل ، وهو لا يتحدث اليهم إلا بألفاظ مختارة منتقاة ، ثم هو لا يظهر للناس إلا في زينة أنيقة معتدلة قد لاءم بين دقائقها ملاءمة شديدة الاتساق والانسجام . وهو لا يتحدث الى الناس إلا بألفاظ عذاب رقاق ، وفي صوت معتدل لا يرتفع فيؤذي الآذان ، ولا يسرف في الانخفاض فيشق على النفوس . وهو رفيق رقيق متأنق في إشاراته وفي حركاته . وهو حين يخرج من داره الى عمله ، أو الى زيارة صديق يتخذ عربته تلك المترفة ، يجرها الجواد المترف ، ويسوقها السائق الأنيق !

فلما تقدم القرن شيئاً ، تغيرت الدنيا وهجمت الحضارة الغربية هجوماً جعل يزداد عنفاً من يوم الى يوم ، ثم بلغ أقصى غايات العنف بعد الحرب العالمية الأولى . . فأخذ المترفون من المصريين يتركون ترفهم القديم الأنيق الذي كانوا يعرفونه ويألفونه ويحسنون تنميقه والتأنق فيه ، الى الترف الغربي الجديد الذي لم يعرفوه ولم يألفوه ، ولم يتح لهم أن يفتنّوا فيه ، وانما أخذوه كما هو واندفعوا فيه غير متحفظين ، فكانوا محدثين ! وقد تغير تصورهم للحياة بتغير ما يحيط بهم من الأداة فاضطربت أحكامهم على الأشياء ، وساء تقديرهم للظروف ، وتغير ذوقهم شيئاً فشيئاً .

وقل مثل هذا بالقياس الى الحياة العقلية . فقد كان المصريون الى أوائل هذا القرن أميل الى المحافظة في ثقافتهم ، يغذون عقولهم بالتراث العربي اكثر مما يغذونها بالتراث الاجنبي . ثم هجمت الثقافة الاجنبية هجوماً لم يكن أقل عنفاً من هجوم الحضارة الاجنبية ، فاضطربت لهجومها العقول ، واختلطت له الأمور ، وتأثرت به الاخلاق ، وتغير به الذوق ، وكانت الموقعة الهائلة بين الأدب القديم ، والأدب الجديد !

•

ثم كانت الحرب العالمية الثانية فأقبلت معها حضارة مادية

عنيفة . ولم تكد تنقضي حتى كان كل شيء قد اضطرب في حياة المصريين المادية ، والعقلية ، والخلقية جميعاً . وكان اضطراب الذوق بعد هذا كله ، وبتأثير هذا كله ، شيئاً لا بد منه ولا سبيل الى اتقائه !

وربما كان أخص ما يمتاز به هـــذا الهجوم الذي غير الحضارة المصرية فغير الذوق المصري تغييراً عنيفاً خطيراً ، أنه تأثر بالعنصر الامريكي اكثر مما تأثر بالعناصر الاوربية .. فقد صحبنا الحضارة الاوربية منذ أول القرن الماضي بل منذ اواسط القرن الثامن عشر ، وتأثرنا بصاحبتها وتغيرت لها اخلاقنا وأذواقنا وحياتنا تغيراً شديداً ، ولكن هذا التغير تمّ في اعتدال لم يعنف بنا ولم يخرجنا عن اطوارنا بمقدار ما عنف بنا هذا التغير الطارىء بين الحربين ، ومنذ اثيرت الحرب الثانية بنوع خاص ، ومنذ انقضت هـــذه الحرب الثانية بنوع أخص !

وليس لهـــذا كله مصدر فيما أظن غير هجوم الحضارة الامريكية المادية والثقافة الامريكية اليسيرة التي لا تعرف التعمق ولا التمحيص ولا الاناة ، والتي تؤثر السرعـــة والمعرفة الخاطفة . ويمكن أن يقال إننا مدينون لهـــا بهذا الاضطراب الخلقي العنيف الذي ينعم بـه الجيل الناشيء ، ويشقى به الجيل المنقرض ، وتتعرض به مصر لخطر عظيم !

فاذا رأيت قيم الاشياء تتغير إلى هذا الحد الذي نشهده، وإذا رأيت الشباب لا يحفلون بشيء ، ولا يتحرجون من شيء ، ولا يتحفظون في قول او عمل ، وإذا رأيت الصحف تخوض فيما لم تتعود ان تخوض فيه من قبل ، وعلى نحو مجافٍ لكل ما الفنا من سماحة الخلق ، وسجاحة الطبع ، وصفاء النفوس ورقة الأذواق ، فاحمل هذا كله غير متردد ولا متهيب على هذه الحضارة الطارئة التي غزتنا بها اميركا ، فكانت بعيدة الاثر في حياتنا المادية والاقتصادية والادبية ، ومع ذلك تهافت الناس عليها تهافتاً عنيفاً وهم لا يشعرون !

●

وقد تسألني عما حملني على ان أتحدث اليك في الذوق ، وفي معناه ، وفي تطوره وفي فساده ؟! فسل نفسك عما تقرأ ، وعما ترى ، فستجد في نفسك وستجد في نفس غيرك الجواب على هذا السؤال !!

١٩٤٧

خوف

•

لست أدري اين قرأت – بل لعلي أعلم اني قرأت في فصل طويل أراد به صاحبه تعريف مصر الى اعضاء المؤتمر البرلماني الدولي الذين يزورون مصر في هذه الايام – ان المصريين ديمقراطيون بالطبع ، وانهم احرار بالطبع كذلك ، لا يستطيعون ان يعيشوا الا مستمتعين بالحرية الكريمة ، تحت ظل ممدود من الديمقراطية السمحة ! وقد يكون هذا حقا ، ولكن هناك حقا آخر ، لعله يكون أشد منه ثبوتاً ووضوحاً ، وهو ان الانسان يفسد كثيراً من جمال الطبيعة ويغير كثيراً من حقائق الاشياء ، تدفعه الى ذلك مصالحه العاجلة احيانا ، ويدفعه اليه خطؤه في الحكم والتقدير أحياناً أخرى ... واكبر الظن ان الانسان قد حاول وما زال يحاول ان يفسد الطبيعة المصرية ويغير بعض الحقائق المصرية . فقد يكون المصري ديمقراطياً بطبعه ، ولكن قد يوجد من

المصريين او من غير المصريين من يحدّ من هذه الديمقراطية حداً شديداً ، او يحولها الى ما يناقض الديمقراطيـــة من الخصال والاخلاق . وقد يكون المصري مطبوعاً على الحرية ، ولكن قد يوجد من المصريين او من غـــير المصريين من يفسد هذا الطبع ويحوّله الى لون من الخنوع والخضوع ليس من الحرية في شيء !

وما أريد ان أمضي مع هذا التفكير الى غايته فابحث واستقصي ، وانشر على القراء فصلاً في هذه الفلسفة الـــتي تصور اثر الانسان المتحضر في افساد الطبيعة الخيرة للناس ، فهذا بحث قديم كثر فيه القول ، واشتد حوله الجـدال . وانما أريد ان أقف عند جماعة محدودة من المصريين يمكن ان يحصيهم العد ، وان الفت القراء الى طبيعتهم الديمقراطية الحرة ، والى ما تصبّ عليهم الظروف والاحداث من الفساد المتصل الذي يحولها عن أصلهـا الجميل السمح الى شيء آخر بعيد كل البعد عن السماحة والجمال . وهذه الجماعة هي جماعة الموظفين . وما أريد ان أسوء الموظفين ولا ان أشق عليهم ولا أن أوذيهم في ذات أنفسهم ، فانا أقرر انهم كغيرهم من المصريين : ديمقراطيون بالطبع ، احرار بالطبع ، قـد فطروا على ما شاء الله من كرم الاخلاق ورقـــة الشمائل وسماحة القلوب والنفوس ، وانما أريد ان أعتذر لهم ، او ان

أعتذر عنهم ، او قل اني اريد ان ارثي لهم وأرفق بهم ، واطلب الى أصحاب السلطان مهما تكن احزابهم ان يشملوهم بشيء من العطف والرفق والعناية ، حتى لا تفسد طبيعتهم الديمقراطية ، وحتى لا تتعرض فطرتهم الحرة الى بعض ما تتعرض له من الشر الذي لا يؤذيهم وحدهم وانما يؤذي معهم الناس جميعاً ، ويصبح شيئاً بغيضاً يشبه الامراض المعدية التي تتجاوز المرضى الى الاصحاء!

هؤلاء الموظفون معرضون دائماً لسخط أصحاب السلطان اذا تورطوا فيما لا يحبون . واصحاب السلطان من الوزراء والرؤساء ناس كغيرهم من الناس ، يخطئون ويصيبون ، ويسرفون ويقصدون ، ويجورون ويعدلون . والاصل ان لهم على الموظفين الذين يعملون معهم حقاً ، هو إنفاذ أمرهم في حدود النظم والقانون . فليس الموظف ملكاً لرئيسه يجب ان يتصرف وفق هواه ، وليس الموظف خادماً لرئيسه ينبغي ان يجيبه الى كل ما يريد ، وليس الموظف موظفاً عند وزيره او رئيسه ، وانما هو موظف عند الدولة التي لا تمثل الحكومة وحدها وانما تمثل الحكومة والشعب جميعاً .. واذن فليس على الموظف ان يميل مع أهواء الوزراء والرؤساء ولا ان يطيعهم فيما يخالف النظم والقوانين ، ولا ان يحب ما يحبون ومن يحبون ، او يكره ما يكرهون ومن يكرهون . وانما الموظف انسان حر حظه من الحرية كحظ

الوزير والرئيس ، لا يزيد عليه إصبعاً ولا ينقص عنه أنملة . والوزير والرئيس موظفان آخر الامر كغيرهما من المرؤوسين كلهم خادم مأجور للدولة . وقد أراد النظام — لان المصلحة العامة أرادت — ان يكون بعض هؤلاء الموظفين رؤساء يدبرون ويأمرون ، وان يكون بعضهم مرؤوسين ينفذون ويطيعون .. يجري هذا كله طبقاً لعقد مقرر نظمه الدستور ونظمته القوانين بينهم وبين الدولة لا بينهم وبين هذا الفرد او ذاك ، ولا بينهم وبين هذا الحزب او ذاك ، ولا بينهم وبين هذه الوزارة او تلك .

هذه كلها أوليات يتعلمها الصبية في دروس التربية الوطنية ويتعلمها الشباب فيما يسمعون من أساتذتهم في المدارس الثانوية ومعاهد التعليم العالي ..

ولكن العلم الذي يلقى في الدروس شيء ، والعمل الذي تجري عليه الحياة اليومية شيء آخر في مصر .. كما أن الحقوق والواجبات التي تقررها النظم والقوانين المكتوبة شيء ، والحياة العملية اليومية شيء آخر في مصر .. واني لاذكر يوماً من الايام أشيع فيه ان في مصر أزمة وزارية حادة ، وان الوزارة توشك ان تقال أو تستقيل ، وان حزباً آخر سينهض باعباء الحكم بعد اقالة الوزارة او استقالتها . شاع هذا في الصباح مع الصحف التي تلقى الناس حين يخرجون

من دورهم او تقتحم عليهم هذه الدور قبل ان يخرجوا منها . وأقبل الموظفون على مكاتبهم في وزارة من الوزارات لا يتحدثون الا في هذه الاشاعة ، يذكرون الوزارة المضطربة منكرين لها ، ساخطين عليها ، ويذكرون الوزارة المنتظرة مكبرين لها راضين عنها كل الرضى . تجري بهذا كله ألسنتهم وتنطق به وجوههم ، فاما قلوبهم وضمائرهم فعلمها عند الله الذي يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور . ثم ارتفع الضحى ، وكانت هناك غرفة لا يخف حولها ازدحام الزائرين والقاصدين والموظفين لحظة من نهار ، وأخرى تقع منها غير بعيد لا يزورها الناس الا لماما . فلما ارتفع الضحى من ذلك اليوم فرغت الغرفة الاولى وفرغ ما حولها من الفضاء فلم يطرقها طارق ، ولم يلمّ بها احد واستراح التليفون فيها واراح . وتحول التيار العنيف من الزائرين والقاصدين والموظفين الى الغرفة المجاورة .

وضحك صاحب الغرفة الاولى فيما بينه وبين نفسه رثاء لهؤلاء الناس ، وضحك صاحب الغرفة الثانية فيما بينه وبين نفسه سخرية من هؤلاء الناس . ثم اقبل المساء وحملت الصحف الى الناس ان الوزارة باقية في مناصبها ، وان الازمة قد حُلت أو ارجئت ، فلما كان الغد عاد التيار الى مجراه الاول فازدحم الفضاء حول الغرفة الاولى وخلا حول

الغرفة الثانية خلواً مخيفاً . وضحك صاحب الغرفة الاولى فيما بينه وبين نفسه ساخراً من هؤلاء الناس ، وضحك صاحب الغرفة الثانية فيما بينه وبين نفسه راثياً لهؤلاء الناس !

وكل وزارة صائرة الى الازمة مهما تعمر ، وكل حزب سياسي ذي خطر ناهض باعباء الحكم ذات يوم مهما يبعد عن الحكم . فاذا خضع الموظفون لهذا الخوف واصبحوا كالقربة التي تُمخض بغير انقطاع ، وتُهز هزاً عنيفاً متصلاً في في غير راحة ولا اناة ولا سكون ، فأخلِقْ بهم ان يصرفوا الى غير اعمالهم ، وان يشغلوا بغير ما يؤجرون عليه من العمل ، وان يعنوا بغير ما تفرض عليهم النظم والقوانين ان يعنوا به من الامر !

ذلك إلى ان الرجل الديمقراطي بالطبع ، الحر بالفطرة ، لا ينبغي ان يُهز ولا يمخض لسقوط وزارة ونهوض وزارة اخرى ، ولعزل رئيس وتولية رئيس آخر .. وإثم هذا كله ليس على الموظفين وانما هو على الوزراء والرؤساء الذين يتجاوزون حدودهم ، ويطلبون الى الموظفين بالاشارة الدالة وبالقول الصريح أكثر مما يبيح لهم القانون ان يطلبوا منهم . وفي الامر ما هو أشد من ذلك خطراً وأعظم منه نكرا . فالموظف قد ألف من الوزراء والرؤساء أن يخاصم من يخاصمون ويوالي من يوالون حتى أصبح يرى ذلك واجباً

عليه ، وحتى اصبح يرى رزقه معرضاً للخطر ان خاصم ولياً للوزير ، او وفى لخصم من خصوم الوزير . وكذلك تفسد الطبيعة الديمقراطية والفطرة الحرة .. وكذلك تفسد الصلات بين الناس ، ويقوم الكذب والنفاق والقطيعة مقام الصدق والاخلاص والتواصل . وكذلك تضيع مصالح الناس ومنافعهم لأن الموظفين مضطرون الى ان يرعوا في خدمة هذه المصالح والمنافع اهواء الوزراء والرؤساء ، لا اصول الحق والعدل والقانون . وكذلك تُهدر الكرامة والعزة ويصبح الموظف عبداً للوزير وخادماً للرئيس ، لا يملك من امر نفسه شيئاً ، قد استقر في قلبه خطأ أو صواباً انه موظف عند الوزير والرئيس ، لا عند الدولة التي هي فوق الوزير والرئيس .. وكذلك تقوم حياة الموظفين على الخوف أن يقطع الرزق ذات صباح او ذات مساء !

ولست اعرف شيئاً يفسد الاخلاق ويملأ الحياة العامة شراً ونكراً كالخوف . ولست أعرف شيئاً يصلح الاخلاق ويملأ الحياة العامة والخاصة خيراً وعرفاً كالأمن .. فهل من سبيل الى ان تُعصم قلوب الموظفين من الخوف ، وتطمئن نفوسهم الى الأمن ، لتقوم حياتهم وصلاتهم على ما تقتضيه الطبيعة الديمقراطية والفطرة الحرة من الصدق والاخلاص والوفاء ورعاية الكرامة والارتفاع عما يذل ويهين ؟!

١٩٤٧

النفوس القلقة

•

هي نفوس المصريين جميعاً لا تستثني منها نفساً مهما يكن صاحبها ، فالغني قلق على ثروته لانه يرى حوله من الاحداث العامة والخاصة ما يذود عن قلبه الامن ، ويصد عن نفسه الطمأنينة ، ويدفعه الى حياة قلقة خائفة ، واذا هو يعرف كيف عاش امس ، ويكاد يعرف كيف يعيش اليوم ، ولكنه لا يعرف كيف يعيش غداً او بعد غد ، وليس من الهين على الاغنياء مهما تكن حظوظ قلوبهم من القسوة واللين ان يصبحوا محسّدين ، ويمسوا محسّدين ، ويحسوا في كل لحظة ان نفوس المحرومين متصلة بنفوسهم هذا الاتصال المخيف ، الذي يقوم على البغض والحسد وعلى هذه الاماني التي تعبث بقلوب المعوزين . وليس من اليسير على الاغنياء مهما تكن حظوظ قلوبهم من القسوة واللين ، ان يعلموا ان عيون المحرومين ترمقهم حين يغدون وحين يروحون ، وفيها

ما فيها من التطلع والطمع ، ومن التمني والامل ، ومن الحاجة المكبوتة ، والسؤال الذي يعلم ان ليس له جواب.

كل ذلك يخيف ، وكل ذلك يقلق ، وكل ذلك ينغص الحياة اثناء اليقظة ، وينغص الاحلام اثناء النوم. فاذا اضفت الى ذلك ان امور الامن المادي ليست على ما يحب الناس ويشتهون ، قدرت هذا القلق الذي يأخذ نفوس الاغنياء من جميع وجوهها ، ويسعى اليها سعياً متصلاً ملحاً لا يريح ولا يستريح . ونفوس الموظفين قلقة لان اجورهم تضيق بأيسر حاجاتهم ، فهم يكدون ويكدحون ، او هم يكسلون ولا يعملون ، ولكنهم اخر الشهر يقبضون مرتبات ايسر ما توصف به انها تسد بعض خلاتهم ، ولكنها لا تستطيع بحال من الاحوال ان تسد خلاتهم كلها ، فهم قلقون قبل ان يخرجوا من دورهم مع الصبح ، لانهم يرون الحاجات الكثيرة التي تريد ان تقضى ، والمادة القليلة التي لا تستطيع ان تقضي هذه الحاجات ، وهم قلقون حين يعودون الى دورهم بعد ان يتقدم النهار ، لانهم يرون الفقر والبؤس والضيق ، والحاجات التي كانت تريد ان تقضى ، فقصرت بها المادة القليلة عن القضاء . وهم ينفقون مع اهلهم ساعات قليلة عابسة ، ثم تثقل عليهم الحياة في الدور فيخرجون الى الاندية والقهوات ، يلتمسون فيها التعزية والتسلية ، فيظفرون بها

كشرّ ما يظفر الناس بالتسلية والتعزية . يلقون رفاقهم واترابهم وذوي مودتهم فلا يسمعون منهم الا شكاة متصلة مثل شكاتهم وقلقاً مزعجاً مثل قلقهم . فهم يتعزون بالشكاة عن الشكاة ، ويتسلون بالقلق المزعج عن القلق المزعج ، وهم ينفقون حياتهم في هذا لا يذوقون لأمن النفوس طعما ، ولا يحسون لاطمئنان القلوب روحاً ، وهم من اجل ذلك لا يحسنون التفكير في شيء ، ولا يحسنون التقدير لشيء ، ولا يحسنون الحكم على شيء ، وهم من اجل ذلك يعملون اعمالا قلقة مقلقة ، كما يشعرون شعوراً قلقاً مقلقاً .

وغير الموظفين من عامة الشعب قلقون لاسباب تشبه هذه الاسباب : حاجاتهم كثيرة ، وأيديهم قصيرة ، آمالهم بعيدة واسعة ، واعمالهم قريبة ضيقة ، فهم ينكرون هذا التناقض الذي يكرهون على العيش فيه ، وأي شيء أثقل من أن تمتد الآمال الى غير حد ، ومن ان تتقاصر الاعمال الى أضيق حد . فاذا أضفت الى هذا كله ان الحياة العامة ليست خيراً من الحياة الخاصة ، وان الشعب المصري كان وما زال مستيقناً بان من حقه ان يكون شعباً مستقلاً ، عزيزاً كريماً ، وكان وما زال مستيقناً ان استقلاله يفتح له ابواباً من النشاط في الحياة العالمية السياسية والثقافية والاقتصادية ، وكان وما زال مستيقناً ان من حقه ان

يبسط امله الى ابعد الآمال والغايات ، وان ينشىء ابناءه على هذه الحياة الوائقة بحاضرها ، المطمئنة الى مستقبلها ، ثم هو ينظر فيرى استقلاله ما زال في درج من ادراج وزارة الخارجية البريطانية سجيناً ، قد حيل بينه وبين الحرية التي تتيح له ان يعود الى وادي النيل ، فيملأ نفوس اهله وقلوبهم بشراً وبهجة واغتباطاً . ثم هو ينظر فيرى القوة البريطانية ، ما زالت تأخذه من جميع اقطاره ، تحتل ارضه في الشرق والجنوب ، وترابط على حدوده في الغرب ، وتأخذ عليه مسالك البحر في الشمال ، فلا يكاد يرى هذا كله حتى تمتلىء نفسه قلقاً ، على حاضره ومستقبله ، في حياته العامة ، كما امتلأت نفوس افراده قلقاً ، على حاضرهم ومستقبلهم في حياتهم الخاصة .

فكيف تريد ان يستقبل هذا الشعب ايامه ، راضياً مبتهجاً مسروراً ، والشعوب لا تمارس امورها بأنفسها ، وانما تمارس امورها بواسطة هؤلاء الناس ، الذين تنتخبهم ليكونوا لها شيوخاً ونواباً ، تلقى عليهم اعباء الامور العامة ثم يفرغ افرادها لامورهم الخاصة ، حتى يجيء موعد الانتخاب . وهي تمارس امورها العامة بهؤلاء الناس الذين يتولون فيها الحكم ، نائبين عن البرلمان ، مسؤولين امامه يؤدون اليه الحساب عن كل ما يأتون وما يدعون . فاذا

نظر الشعب فرأى شيوخه ونوابه ووزراءه ، لا يحتملون الاعباء كما كان ينبغي ان يحملوها ، ولا يصرّفون الامور كما كان ينبغي ان يصرّفوها ، وانما تثقل عليهم الاعباء فلا يستطيعون أن ينهضوا ، وتنتشر عليهم الامور فلا يستطيعون أن يتصرفوا ، وتعجبهم مع ذلك نفوسهم فلا يستطيعون ان يتخلوا عن مناصبهم ومراكزهم ، وانما يظلون جاثمين على صدر الشعب كما يجثم الكابوس الثقيل الطويل .

اذا نظر الشعب فرأى هذا ورأى انه لا يستطيع ان يغير من هذا قليلًا ولا كثيراً ، تسلط القلق عليه ، فافسد امره كله افساداً منكراً .

فكيف اذا نظر الشعب فرأى الفساد يحيط بمرافقه كلها ، ويتغلغل فيها كلها ، ويحول بينها وبين ان تنتج له بعض ما كان ينتظر منها ، فضلًا عن ان تخرجه من الضعف الى القوة ، ومن الانحطاط الى الرقي ، ومن الظلمة الى النور .

تحدّث الى من شئت من المصريين ، واختره من اي طبقة شئت ، وتحدث معه في اي موضوع شئت ، فلن تسمع منه الا حديث القلق الخطر ، لا على حياته الخاصة ، بل على كل شيء . بل أنا اذهب الى ابعد من هذا ، وأزعم انك لن تستطيع ان تتحدث الى المصريين مهما يكونوا ،

ومهما تكن طبقتهم ، ومهما يكن الموضوع الذي تتحدث اليهم فيه ، وقد برأت نفسك من القلق ، ورددتها الى الامن ، وجعلتها قادرة على ان تبحث وتستقصي غير متأثرة بالقلق العام ، ولا مشاركة فيه ، لن تستطيع ذلك مهما تكن ، ومهما تكن طبقتك ، لانك قلق كغيرك من المصريين . فانت كهؤلاء الموظفين الذين ذكرتهم آنفاً تتعزى عن قلقك بقلق مواطنيك . وانا حين املي هذا الحديث ، لم آخذ في إملائه الا وانا اجد من القلق مثل ما يجد غيري من المصريين ، أو اكثر مما يجد غيري من المصريين . وما اعلم اني صورت قط حياة المصريين تصويراً صادقاً كما اصورها في هذا الحديث ، فهي حياة قد تغلغل القلق فيها ، حتى اصبحت كلها قلقاً . بقي ان نسأل ولن نجد من يجيب عن هذا السؤال ، لمصلحة من يفرض هذا القلق العام على الشعب المصري ؟ ! !

اما المصريون انفسهم ، فلن يفيدوا منه الا شراً ، واما الانكليز وغير الانكليز من الاجانب الطامعين الذين يتربصون بنا الدوائر فليس انفع لهم ولا احب اليهم من ان نفقد صوابنا ، ونضل اعصابنا ، ونعجز عن تدبير امورنا !! وسؤال آخر يوجه الى الحكومة والى البرلمان ايهما خير : ان يظل الوزراء في مناصبهم ، دون ان يصنعوا شيئاً ،

وان يختلف النواب الى مجلسهم ، دون ان يصنعوا شيئاً ، ام ان يعاد النظر في امرنا كله لعلنا ان نطمئن بعد قلق وان نأمن بعد خوف ؟!

وانا بعد هذا كله ، اضنّ بالوزراء والنواب على ان تدفعهم الاثرة الى ان يقولوا كما قال قوم من قبلهم ، فهلكوا واهلكوا : لنعش نحن وليأتِ من بعدنا الطوفان !

١٩٤٨

الوسائل والغايات

•

نستعير هذا العنوان من الكاتب الانكليزي المعروف ألدوس هكسلي ، ولكننا لا نستعيره ، لبحث عن المشكلات العليا التي بحث عنها في كتابه المشهور ، وانما نستعيره لبحث عن مشكلات يسيرة متواضعة ، تلائم حياتنا اليسيرة المتواضعة ، فقد خلقت مصر فيما يظهر لتنهض بجلائل الأعمال وعظائم الأمور ، ودل تاريخها كله على انها قد يُسّرت لما خُلقت له فنهضت بجلائل الاعمال وعظائم الأمور ، في عصورها القديمة ، والمتوسطة ، ولكنها في هذا العصر الحديث — او بعبارة أدق منذ كان الاحتلال البريطاني — قد أكرهت على التواضع والتضاؤل والاكتفاء بهذه الحياة اليسيرة الضئيلة ، التي لا يأكل الانسان فيها ويشرب وينام ويستيقظ ليعيش ثم ليأتي في حياته بما ينفعه وينفع الناس ، وانما يعيش الانسان فيها ليأكل ويشرب وينام ويستيقظ ، ثم لا يزيد

على ذلك شيئاً ، ولا يأتي من الأعمال بما ينفع او يفيد !

نستعير اذن هذا العنوان الخطير من الكاتب الانكليزي العظيم لبحث متواضع يسير ضئيل ، كحياتنا المتواضعة اليسيرة الضئيلة .. وأول ما نلاحظه في هذا البحث الذي لا خطر له ولا قيمة — والذي نرجو مع ذلك ان يقرأه الناس ولو نياماً كما يقدمون على كل شيء في هذه الايام وهم نيام كالايقاظ او ايقاظ كالنيام — ان نفس الامة المصرية مريضة منذ كان الاحتلال البريطاني ، بمرض يفسد عليها حياتها كلها ، ولن تستقل الحياة الخصبة المنتجة إلا إذا برئت من هذا المرض ، وهو الاشتغال بالوسائل عن الغايات ، وبالظواهر عن الحقائق . تلاحظ آيات هذا المرض في سيرتها كلها ، سواء منها ما يتصل بحياتها العامة وما يتصل بحياتها الخاصة ، وسواء منها ما يتصل بالجد الذي يُقصد به إلى الانتاج وما يتصل بالترفيه الذي يقصد به إلى الراحة والاستجمام !

فالمصري كما قدمت لا يأكل ليعيش ، وانما يعيش ليأكل . وهو كذلك لا يستريح لينتج ، وانما ينتج ليستريح ، إن اتيح له شيء من انتاج . وهو لا يتعلم لينتفع بعلمه وينفع الناس ، ولا يتخذ المنصب وسيلة إلى هذا النفع ، وانما يتعلم ليجد المنصب ، ويجد المنصب ليقبض المرتب آخر الشهر ، ويقبض المرتب ليعول اهله كما يستطيع أولاً ، ثم ليختلف الى

الاندية والقهوات بعد ذلك ، فيخوض من لغو الحديث وسخف القول فيما شاء الله أن يخوض فيه !

•

وحياته العامة كحياته الخاصة قد اصيبت بهذا العرض من أعراض المرض ، فلزمها في كل فروعها ! وقد يكون مما يضحك ويسلي — ان كان في الشر ما يضحك ويسلي — ان تلاحظ ان مصدر هذا المرض في حياتنا العامة خطأ يسيرٌ في الحكم والتقدير . . فقد قامت النهضة المصرية الحديثة كلها على فكرة خطيرة خصبة ، هي ان مصر قد اضطرت أيام الترك العثمانيين إلى الركود والخمود ، ومضت اوربا في طريقها الى الرقي حتى سادت العالم وسيطرت عليه ، ففكر زعماء النهضة منذ أول القرن الماضي في ان اول ما يجب على مصر هو النشاط الذي يتيح لها ان تدرك اوربا ، وان تأخذ بأسباب الحضارة كما أخذت بها ، وتسعى الى الرقي كما سعت اليه . فكان التشبه بأوربا في اول النهضة وفي أثنائها أيام محمد علي واسماعيل وسيلة لا غاية لم يفكر محمد علي واعوانه ، ولم يفكر اسماعيل ومشيروه في ان تكون مصر كأوربا لأن التشبه بأوربا غاية من الغايات التي تُقصد لنفسها ، وإنما فكر محمد علي واسماعيل وأعوانهما ومشيروهما في ان اوربا قد غيرت من حياة

القرون الوسطى ، فأتيح لها رقي في النظم الاجتماعية والسياسية كفل لشعوبها حرية بعد استعباد ، وعدلاً بعد جور ، واستعلاء في الأرض بعد ان كانت مستضعفة متهالكة ، فاراد محمد علي واسماعيل واعوانهما ان تسترد مصر حرية بعد استعباد ، وعدلا بعد جور ، ومساواة بعد تفاوت ، وعزة بعد ذلة .

ولكن هذه الوسيلة لم تلبث ان اصبحت غاية في نفوس كثير من المصريين ثم في نفوس أكثر المصريين ، ثم في نفوس المصريين جميعاً إلا أفراداً قليلين يمكن ان يبلغهم الاحصاء ! فليس المهم الآن هو ان يتحقق في مصر مثلما تحقق في اوروبا من العدل الاجتماعي والسياسي ، وانما المهم هو ان توجد في مصر النظم والادوات التي اتخذتها اوربا وسيلة الى تحقيق العدل السياسي والاجتماعي ، سواء أكان لهذه النظم والادوات من الانتاج مثلما كان لها في اوربا أم لم يكن !

في أوربا وزارات منظمة فيجب أن تكون في مصر وزارات منظمة لتصبح مصر كأوربا ، سواء أعملت الوزارات المصرية كما تعمل الوزارات الأوربية ، أم اكتفت بوجودها ليعرف العالم أن مصر ليست أقل من أوربا تقدماً ولا رقياً.

وفي اوربا دساتير مكتوبة تنظم ما للشعب من حقوق

وما عليه من واجبـــات فيجب ان يكون لمصر دستور مكتوب ، ينظم ما للمصريين من حقوق ومـا عليهم من واجبات . وليس ضرورياً ان ينفذ الدستور في مصر على وجهه ولا ان تحترم الحريات التي يكفلها للناس ، ولا ان تجري الحياة البرلمانية نقية من كل شائبة ، مبرأة من كل عيب ، ولا ان يذهب الشعب الى حيث ينتخب ممثليه حراً آمناً على ضميره من ان يعبث به الترغيب او الترهيب ، ولا ان يؤدي النواب والشيوخ واجباتهم في مراقبة الحكومة ومحاسبتها احراراً آمنين على ضمائرهم ومصالحهم القريبة والبعيدة ، ولا ان تقف الوزارة امام البرلمان موقف المسئول عن اعماله بالفعل ، ولا ان يثق البرلمان بالوزارة فتبقى ويسخط عليها فتزول ! ليس شيء من هذا كله ضروريا وإنما الضروري الذي لا يصح الاغضاء عنه ولا التقصير فيه هو ان يكون لمصر دستور مكتوب كما ان لكل بـــلد راقٍ في اوربا دستوراً مكتوباً !

●

وقد يكون من الظريف ان تلاحظ أننا حين نتمدح بالدستور لا نتمدح بانه يمتعنا بالحرية والعدل والمساواة حقاً ، وإنما نتمدح بأنه كاحدث الدساتير الأوربية . أمرُنا في الدستور كامرنا في الأزياء وفي أزياء السيدات بنوع خاص ، لا ينبغي

ان يبعد بها العهد وإنما ينبغي ان تأتي من أشهر دور البِدَع في باريس ، او ان تكون صورة طبق الأصل لما تنتجه أشهر دور البدع في باريس !

والأزياء التي تأتي من باريس تكلف الذين يشترونها ثمناً غالياً فيجب ان يكلفنا الدستور الذي هو كاحدث الدساتير الاوربية ثمناً غاليا أيضاً . ولست أذكر نفقات الانتخاب ولا المكافآت البرلمانية ولا المرتبات التي يتقاضاها الموظفون في البرلمان ، وانما أذكر المرافق المهملة ، والمنافع المضيعة ، والأخلاق التي اشتمل عليها الفساد ! فهذه هي الاثمان التي يجب ان نؤديها ليكون لنا دستور مكتوب كاحدث الدساتير المكتوبة في اوربا . ولكل بلد من البلاد الراقية جيش منظم على احدث طراز فيجب ان يكون لنا جيش منظم على أحدث طراز ، ننفق عليه الملايين « المملينة » إن أجاز المجمع اللغوي هذا التعبير ! وليس ضروريا ان يكون هذا الجيش او لا يكون قادراً على حماية مصر من المغيرين ، بل ليس هناك بأس من ان يحتفظ هذا الجيش بكبريائه وتمتلىء قلوبنا نحن بالكبرياء لأن لنا جيشاً منظما على أحسن طراز في نفس الوقت الذي يحتل فيه مصر جيش أجنبي منظم كذلك على احسن طراز !.. ومن يدري ؟ لعل هذه ميزة لمصر ، فليس في أرضها جيش واحد وانما جيشان

كلاهما منظم على أحدث طراز !

وفي كل بلد من البلاد الراقية وزارة للتعليم ، فيجب ان تكون لنا وزارة للتعليم . وقد تلاحظ أن الجاهلين في مصر ما زالوا هم الكثرة الكثيرة ، وأن المتعلمين مازلوا هم القلة القليلة . ولكن هذا كله ليس ذا خطر ، فوزارة التعليم لا يراد منها إزالة الجهل ونشر التعليم ، كما أن وزارة الصحة لا يراد منها إزالة المرض ونشر الصحة ، وكما أن وزارة الشؤون الاجتماعية لا يراد منها إزالة الشقاء وإشاعة الثراء ، وانما الذي يراد من هذه الوزارات ومن غير هذه الوزارات ، كالذي يراد من الدستور ومن كل نظمنا الحديثة هو أن توجد لنستطيع أن نقول ، وقد رفعنا الرؤوس وشمخنا بالأنوف ونظرنا الى السماء وأبينا أن ننظر الى الأرض : « إن مصر بلد حديث ، فيه كل النظم التي تستمتع بها البلاد الحديثة الراقية ! »

وويل لنا إن نظرنا إلى الأرض فقد نرى على الأرض إن نظرنا اليها شعباً جاهلاً مريضاً فقيراً ، لا يوجد في أوربا ولا في غير أوربا من البلاد الراقية المتحضرة ! فلننظر إلى السماء ، وإلى السماء وحدها ، ولنكتف بالوسائل ولنتجنب الغايات .

●

هـذه هي العـلة التي تفسد على مصر حياتها كلهـا في هذه الأيام . . !

فالذين يريدون الاصلاح ويلتمسون اليه الوسائل ، والذين يختصمون في تعديل الدستور ، والذين يريدون تقويم الاداة الحكومية ، والذين ينفخون في القرب المقطوعة ، وينقشون على صفحات النيل ، ويريدون ان يقرأوا ما ينقشون ، كل هؤلاء خليقون ان يراجعوا أنفسهم ، وان يفكروا في ان لا سبيل إلى الاصلاح حتى يقرّ في نفوس المصريين عامة ، وفي نفوس القادة والساسة خاصة ، ان الاستقلال والدستور ونظم الحكم والوزارات والمصالح .. كل هـذه وسائل لا تقصد لنفسها ، وانما تتخذ أدواتٍ لشيء آخر هو الذي يجب ان نفكر فيه ، ونحرص عليه ، وهو سعادة الشعب ، او على أقل تقدير تخفيف ما يلقى الشعب من الشقاء !

أمن الممكن ان نقر في نفوس المصريين ان من الحق عليهم لأنفسهم ولتـاريخهم ولمستقبل وطنهم أن ينظروا إلى الوسائل على أنها وسائلٌ لا على أنها غايات ؟!

مسألة فيها نظر ..!

١٩٤٧

لبنان

•

تلقّاني مشرقَ الوجه ، باسمَ الثغر ، سمح النفس ، رقيق الشمائل ، عَذْب الحديث . ولم يدع لي فرصةً تسمحُ بسؤاله ، او الإدلاء اليه بما كنتُ اريد ، وانما مضى في التأهيلِ والتسهيلِ والترحيب ، حتى أغرقني ، واغرق من كان معي من الرفاق ، في بحر من التحيات لا ساحل له . وكانت الساعةُ ساعةَ الشاي ، واذا هو يضرب يداً بيد ، فيُقبِلُ الخُدّامُ من كل وجه ، فيُلقي الامر هنا وهناك ، ويتلقى منه الامر هذا الخادم او ذاك ، ثم يعود الينا مُضيفاً تحيةً الى تحية ، مردفاً ترحيباً بترحيب ، كأنه كان لي صديقاً حميماً قد بَعُدَ العهدُ بينه وبيني ، فهو سعيدٌ باللقاء المفاجيء بعد الفراق الطويل الاليم .

وانا اسمع لهذا الحديث المتصل في ذهول ، واتلقى هذه التحيات المترادفة في وجوم ، فلم اكن لقيت هذا الرجل

الكريم قط ، ولم قد اكن سمعت به قبل ذلك اليوم قط . وانما كنت رجلاً مصطافاً قد أقبل بأهله يلتمس شيئاً من الراحة والدعة واعتدال الجو في لبنان ، بعد ان انهكه العمل ، واحرقه القيظ ، وثقلت عليه الحياة في مصر وكانت الطريق الى اوروبا مقطوعة ، قطعتها الحرب ، وكانت الحياة في الاسكندرية على اعتدال جوها مضنية مشقية لا تعفي من عمل ، ولا تريح من عناء ، ولا تتيح هذا التغيير الذي نحتاج اليه بعد ان نعمل عملاً مضنياً ثقيلاً مختلفاً عاماً كاملاً . فلم يكن بد من التماس الراحة في لبنان .

وقصدنا الى لبنان حين تقدم فصل الصيف ، وازدحمت الفنادق بالمصطافين حتى استعان اصحابها اهل القرى ، يضيفون عندهم من لا يجدون له مكانا في فنادقهم . وكنت قد سمعت بهذا كله قبل ان اعبر الصحراء الى فلسطين ، واستوثقت من هذا كله حين بلغت القدس واقمت فيها اياماً . ولكن مع ذلك مضيت الى لبنان ، فلم يكن بد من المضيّ اليه ، ومضيت الى هذه القرية بعينها لكثرة ما حدثني الناس عنها ، والى هذا الفندق بعينه لانه كان اضخم فنادق القرية بناء ، وارحبها فناء ، واكثرها حجرات وغرفات ، واجدرها ان يؤوي من يطرقه بعد ان تقدم الصيف . فلا اكاد ابلغه حتى يلقاني صاحبه بهذا السيل المتدفق من التحية

والتكريم ، فيدهشني ما القى من ذلك ، واثبت لهـذا السيل ما وجدت الى الثبات سبيلا ، ثم انتهز فرصة هدأ فيها صاحبي شيئاً من هدوء كأنه اراد ان يتنفس ويبلع ريقه ، بعد ان اسرف في العدو ، فأسأله : اتظن ان في وسعك ان تسكننا في هذا الفندق ؟ وكأنما مَسَسْتُ بهذا السؤال محركاً كهربائياً ، فلا اكاد افرغ من القائه حتى يندفع صاحبي في حديث آخر عذب متصل كأنه السيل ، فما حاجتي الى الفندق التمس فيه الحجرات والغرفات ، ولي في القلوب ما شاء الله من المساكن ، أتبوأ منها حيث اشاء ، وانتقل بينها كما يتنقل الطائر الغرد على الاغصان في الحدائق والجنات . قلت لصاحبي وقد رضيت كل الرضى عن هـذا الشعور ، واشفقت كل الاشفاق ان يكون سراباً يحسبه الظمآن ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد عنده الليل لا يدري اين يقضيه ، قلت لصاحبي : لقد شملتني بكرمك ، وغمرتني بلطفك ، واني لسعيد بسكنى القلوب . ولكنك ترى أن القلوب لا تغني عن الحجرات والغرفات شيئاً ، وان الذين احتملوا مشقة السفر منذ اشرقت الشمس الى ان كادت تجنح الى الغروب مصوبين ومصعدين ، تمخضهم السيارة مخض القرب ، احوج الى غرفة يتخففون فيها من عناء السفر ، والى سرير يلقون عليه ثقل التعب منهم الى قلوب يجدون فيها الحب

والود والبر والحنان . فاذا اجتمعت لهم سكنى القلوب وسكنى الغرفات ، كانوا اسعد الناس سعادة وانعمهم نعيماً...

قال صاحبي ، وقد اخذه ضحك عريض عميق : فانتم اذن اسعد الناس سعادة وانعمهم نعيما ، لانكم تسكنون القلوب دائماً وستسكنون الغرفات متى اصبتم شيئاً من اكواب الشاي هذه التي يسعى اليكم بها الخدم .

هنالك اطمأن قلبي ، ورضيت نفسي ، وعرفت اني لن اطوف في القرى ، وانا لن ننفق الليل بالعراء ، فاقبلت على ما قدم الي من طعام وشراب مغتبطاً مبتهجاً ، واصبت منهما ما شاء الله ان اصيب .

قال صاحب الفندق مبتسماً في حديثه الشعري العذب : ايها احب اليك : ان تسمع صمت الطبيعة ام ان تسمع ضجيجها وعجيجها ؟ قلت متضاحكاً في شيء خفي من الوجل : فان هذا موضوع خطير خصب يحسن ان نرجىء الخوض فيه الى الغد ، بعد أن أكون قد أخذت من الراحة بنصيب . قال وقد اغرق في الضحك : هيهات يا سيدي ، فأنك مضطر الى ان تجيب على هذا السؤال لاعرف اين انزلك ، والى اي نوع من غرفات هذا الفندق يجب ان آويك . فان غرفاتنا يطل بعضها على جهة البحر فلا يسمع الساكن فيها الا صمت الطبيعة الهادئة المطمئنة ، يرى البحر

من بعيد ينبسط امامه الى غير حد ، ولكنه لا يسمع له هديراً ولا زئيراً ، وانما ينعم بمنظره الرائع ، ونسيمه البليل العليل . وبعض غرفاتنا يطل على هذه الجنة المنبسطة التي ترتفع اشجارها العتيقة في السماء ، وفي هذه الجنة من صرير الجنادب ما يشق على السمع اول الامر ، ولا يتيسر للناس ان يسمع بعضهم حديث بعض الا في شيء من الجهد والعناء . فاين تريد ان تنزل ؟ واين تحب ان تقيم ؟ اتؤثر صمت الطبيعة وهدوءها والاشراف على البحر والجبل جميعاً ام تؤثر لغط الطبيعة وصخبها والاشراف على الزهر والشجر ؟ قلت فاني متعب مكدود من اللغط والصخب ، فالراحة احب الي ، والهدوء آثر عندي . قال : لا بأس ، ومع ذلك فينبغي ان تزوروا الغرفات الصامتة والغرفات الصاخبة ، وان تختاروا بعد التجربة والممارسة . قلت : ذاك اليك ، وهؤلاء رفاقي طوّف بهم في الغرفات والحجرات كما تشاء ، وانا راض بما يختارون .

ومضى ومضى معه الرفاق فغابوا عني ساعة وجدت فيها شيئاً غير قليل من الراحة ، وفكرت في اثنائها تفكيراً يمازجه الاشفاق والرضى في صاحب هذا الفندق الذي يحب الحديث ولا يكاد يتحدث الا شعراً . ولكن لم ألبث ان وجدت الطمأنينة ، فهذا الرجل مشغول بفندقه وضيفه ،

ولن يفرغ لي من دون هؤلاء الضيف الذين يزدحم بهم الفندق ، والذين لا تنقضي حاجتهم ، والذين لا يجدون ما يعملون فهم في حاجة الى ان يقولوا ويسمعوا . ثم اقبل علي ومعه الرفاق ينبئونني بأنني سآوي الى غرفة صامتة اذا كان الليل ، واذا احتجت الى الراحة اثناء النهار ، وسأنفق اكثر النهار في جنة الفندق ، أتبوأ منها حيث اشاء فهي واسعة فسيحة ظليلة مختلفة ، فيها الاماكن التي تجمع من سكان الفندق والقرية طلاب الحديث واللعب والمنادمة ، وفيها الاماكن التي يأوي اليها محبو العزلة والراغب ان يفرغ لنفسه أو لكتابه ، او لما احبّ من عمل ، وفيها اماكن الرياضة للاعب التنس وغير التنس من هذه الالعاب التي يحبها الشباب وكثير من الشيوخ . وهمّ ان يمضي في تفصيل جنته الى ابعد من هذا ، لولا اني نهضت وقطعت حديثه قائلاً : الخيرة اذن فيما اخترتم ، فلنمض الى غرفاتنا الصامتة لنتخفف من اثقال السفر ، ولنتهيأ لساعة العشاء .

وانفقت في هذا الفندق شهراً وبعض شهر ، ناعماً بالراحة المريحة والهدوء الذي يملأ القلب رضى ، والنفس مرحاً ، والعقل نشاطاً ، عاكفاً على القراءة والاملاء ، فاذا ضقت بالقراءة والاملاء ، اخذت في الحديث مع الرفاق والزائرين ، فاذا رغبت في شيء من الشعر الحي دعوت

صاحب الفندق الى مكان صامت ، وتركته يتحدث الي بما شاء من الوان الحديث . واذا هو يحدثني في شؤون لبنان على اختلافها ، وينشدني في هذه الشئون شعراً عذباً طليّ اللفظ والمعنى جميعاً ، في لهجة لبنانية . وربما اعجبتني المقطوعة من هذا الشعر فاستعيدها ، واومىء الى صاحبي فيكتبها لاحملها معي الى مصر ، ولاعود اليها من حين الى حين .

وكنت اظن اول الامر ان صاحب الفندق هذا شخص نادر في كرمه وشعره وروايته وحبه للحديث ، ولكني لم اكد اعرف اللبنانيين واتحدث اليهم ، واسمع منهم على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، حتى أستيقنت ان الكرم فيهم خلقٌ قد فطروا عليه ، وان الشعر غريزة قد اتيحت لكثيرين منهم ، بعضهم يستغلها فيحسن الشعر في لهجته اللبنانية ، او في اللهجة الفصحى ، وبعضهم لا يكاد يحفل بها فتشيع في حياته ، واذا هو شاعر على غير ارادة منه في حس مرهف ، وذوق مترف ، وطبيعة مصفاة ، وما اظن احداً يجادلني في ان اللبناني هو اشد الشرقيين حباً للطبيعة ، وكلفاً بها ، وتذوقاً لمحاسنها ، وقدرة على تصويرها .

قل ان سحر لبنان هو مصدر هذا المزاج الخاص او علل هذا المزاج بما شئت ولكن ، امتياز اللبناني في دقة

الحس ، ورقة الشعور ، وترف الذوق شيء ليس فيه شك.

تلمس ذلك حين تلقى الرجل الساذج من اهل لبنان في داره اليسيرة الساذجة ، فلا تحسّ فقراً ولا حاجة ، ولا ضيقاً ولا املاقاً ، وانما تحس تأنقاً وعناية ، ولا تشك في ان الذوق قد عمل في ترتيب هذه الدار وتنسيقها ، حتى اصبحت تصور الرضى والامن والدعة والاطمئنان الى العيش والابتسام للحياة .

وان انس فلن انسى يوماً ازمعنا فيه ان نتروض في لبنان ، فلم نكد نرفع ايدينا من طعام الغداء حتى انحدرت بنا السيارة الى بيروت ، ثم صعدت بنا الى عاليه ثم مضت مصعّدة ومصوّبة ، ونحن نقفها هنا وهناك ونيامن بها مرة ، ونياسر بها مرة اخرى ، حتى اذا اقبل الاصيل كنا قد بلغنا شتوره ، وقد اخذ منا الجوع والظمأ لكثرة ما صعدنا وما صوّبنا ، ويامنا وياسرنا ، في هذا الهواء البارد الذي كان يذكرنا بقول المتنبي :

وشعاب لبنانٍ وكيف بقطعها
وهو الشتاء وصيفهنّ شتاء

فلما بلغنا شتورة مجهودين مكدودين جياعاً ظماء اسرعنا الى فندقها الاصيل ، فيتلقانا صاحبه بما تعود اللبنانيون ان يتلقوا به الضيف من التأهيل والتسهيل والترحيب ، ويسعى

بنا الى غرفة الطعام ، وهناك يقدم الينا ما شاء الله من طعام مختلفة الوانه ، وفاكهة مختلفة فنونها ، وشاي لم اشرب مثله قط جودةً نوع ودقة صنع . وكان معي صبية جياع ظماء ، خلى بينهم وبين الطعام والشراب ، فارسلوا انفسهم على سجيتها ، واندفعوا يأكلون ويشربون لا يلوون على شيء ، وانا احضهم واشجعهم ، وأمهم توصيهم بالرفق والاناة وتحثهم على القصد والاعتدال وهم يسمعون لي اكثر مما يسمعون لأمهم ، يغريهم بذلك جودة ما بين ايديهم ، وصاحب الفندق يذهب ويجيء ، يلقي الامر هنا وهناك ، ويحتفي بهؤلاء المندفعين في الطعام والشراب ، حتى اذا اصبنا من هذا كله حاجتنا وفوق حاجتنا ، وهممنا ان ننصرف ، وطلب صاحبي الحساب الى احد الخدم ، قال الخادم متبسماً : هيهات ، لا حساب انما انتم ضيف صاحب الفندق . ونحن نلحّ ونلحّ ، والخدم يلحون في الاباء ، حتى اضطررت الى ان اسعى الى صاحب الفندق خجلاً مستخذيا لكثرة ما اسرفنا على انفسنا وعلى مضيفنا . كنا نظن اننا سائحون نشتري حاجتنا من احد الفنادق ، ولا نستشير في ذلك الا طاقتنا على الاكل والشرب ، وقدرتنا على اداء الثمن . فاذا نحن ضيفٌ قد اسرفنا على من ضيّفنا ، فانا حائر بين الشكر والاعتذار ، وصاحب الفندق مندفع في تحيته

واغتباطه بانا قد مررنا بـــه ، ونزلنا عليه ، واصبنا من طعامه وشرابه ، ولولا امتناعنا والحاحنا في الامتناع لمـــا صدرنا عنه وايدينا فارغـــة من بعض ما كان عنده من الطيبات .

كذلك انفقت تلك الاجازة في لبنان ، فاي غرابة في ان اعود الى لبنان كلما اتيحت لي العودة اليـــه : حياة ناعمة باسمة ، وقوم كرام في غير جهد ولا تكلف ، وجو معتدل يعفيك من القيظ ، ولا يعرضك لما تتعرض له اذا عبرت البحر الى اوروبا من المطر المنهمر ، والسماء المظلمة ، والجو العابس بين حين وحين .

واشهد ما تركت لبنان قط الا تردد في نفسي ، وربما تردد على لساني هذان البيتان :

قفا ودعا نجداً ومن حلّ بالحمى
وقلّ لنجد عندنا ان يودّعـــا
بنفسي تلك الارض ما اطيب الربى
وما احسن المصطاف والمتربعـــا

١٩٤٩

الصَيف

•

فصل الكلال والملال والكسل ، والعجز عن كل نشاط وعمل .

كذلك قال صاحبي حين سألته عن رأيه في الصيف . وصاحبي هذا رجل لا يبغض شيئاً كما يبغض الكسل ، ولا يحب شيئاً كما يحب النشاط والانتاج ، فهو يغدو على عمله فينتج فيه ما شاء الله ان ينتج ، ويروح الى كتابه واوراقه فيقرأ ويكتب وينفع الناس بما يقرأ ويكتب . واحبّ الفصول اليه فصل الشتاء لانه لا يجد في هذا الفصل ثقل الجسم ولا ضيق النفس ، ولا يحس فيه سأماً من عمل او ملالا من قراءة ، وهو لا يكره الخريف لانه يتيح له من العمل والانتاج ما يحبّ ، والخريف عنده قطعة من الصيف المنتهي ، وقطعة من الشتاء المبتدىء . فهو بريء مما يبغّض الصيف الى الناس ، تنكسر فيه حدة القيظ ، ويستشعر الناس فيه شيئاً

من روح ، لانهم يحسون كأنهم يخرجون من النار ويسعون الى دار النعيم في طريق تودعهم فيه لفحات من الحر فاترة، وتستقبلهم فيها نفحات من البرد معجبة . فاذا سألت صاحبي هذا عن الربيع هزّ رأسه ورفع كتفيه وارسل ضحكة ضئيلة فاترة فيها كثير من السخر والاستهزاء . فليس في مصر عنده ربيع ، وانما فيها عنده مغالطة بالربيع . سماء لا تكاد تبتسم حتى يغشاها العبوس ، ونسيم لا يكاد يرق حتى يغلظ ويفسده ما يثور من التراب او من الغبار على اقل تقدير ، وزهر لا يكاد يكتسي النضرة والبهجة حتى يشيع فيه الذواء والذبول . وهو يرى ان الربيع عندنا مصدر من مصادر الحزن والابتئاس لانه لا يكاد يطمع حتى يؤس، ولا يكاد يدفع الى النشاط حتى يضطر الى الهمود والجمود ، ويورط في الخمود والركود . وصاحبي يؤثر الصراحة على الرياء ، والاخلاص على النفاق ، وهو يرى في الصيف والشتاء صراحة واخلاصاً ، ويرى في الربيع والخريف بصر رياء ونفاقاً . وهو يحتمل رياء الخريف لانه رقيق ، ويضيق برياء الربيع لأنه صفيق ، وهو يستحبّ اخلاص الشتاء لانه خفيف ، وينفر من اخلاص الصيف لانه ثقيل . وهو كذلك يقضي في فصول السنة على هوى نفسه وجسمه ، وعلى ما يلائم طبعه ومزاجه، لا يغير من احكامه شيئاً على كثرة ما تتغير الاعوام وتختلف

الفصول . ذلك لانه لا يكاد يحس تغير الاعوام لانه ماض في عمله ونشاطه ما وسعه المضي فيهما ، لا يصرفه عنهما صارف ولا يرده عنهما رادّ من هذه الاشياء التي تصرفنا نحن عن العمل وتردنا عن النشاط ، فهو منقطع لا يزور ولا يكاد يزار ، وهو متخفف من اعباء الحياة الاجتماعية لا يحتمل منها الا ايسرها واقلها كلفة . وهو يرضى ان يصفه الناس بالنفور والفتور والغرور والكبرياء ، ويؤثر لذة العمل والانتاج على لذة اللقاء والحديث ، وعلى كل هـذا اللغو الذي يعيش فيه الناس . ولعله لو خلي بينه وبين نفسه لنسي التاريخ ولم يذكر من عدد السنين والحساب شيئاً . هو كذلك لا يحس تغير الاعوام ولكنه يحس اختلاف الفصول حساً قوياً ، وهو من اجل هذا لا يكاد يحدثك ان لقيته الا عن الحر والبرد ، واعتدال الجو واكفهراره واغبراره ، وعن اثر هـذا كله في حسن استعداده للقراءة والكتابة والعمل . وصاحبي لا يحب الرحلة ولا يميل الى الاسفار ، وابغض شيء اليه ان يضطر الى الانتقال من مدينة الى مدينة داخل مصر ، فاما العالم الخارجي فهو يعرفه سماعاً لا عياناً ، ولعله يعرف منه بالسماع اكثر مما نعرف نحن بالعيان . يأتيه ذلك من كثرة القراءة ومن حسن التعمق لما يقرأ وجودة الاستقصاء لما يعنيه بين الاشياء الكثيرة التي يقرأها . وقد عممت غير مرة ان احبب اليه

الرحلة والانتقال من جو الى جو فلم ابلغ منه شيئاً ، وقد زينت له امر الصيف في ربوع لبنان وفي اقطار فرنسا وايطاليا ، فاظهر الحب لهذا الصيف اللبناني والاوروبي وود لو يصطاف هنا او هناك ، ولكنه ابغض القطار والسفينة والطائرة وعناء السفر ومنغصات الانتقال فآثر العافية واختار البقاء حيث هو لا يتحول ولا يريم .

هذا رأي صاحبي في الصيف والشتاء ، والربيع والخريف ، وهو رأي ذاتي كما ترى فيما يقول الكتاب المعاصرون ، لا يصدر فيه الا عن هوى نفسه ، وراحة جسمه ، وما يلائم مزاجه من الظروف . واكبر الظن ان آراءنا جميعاً في فصول السنة ذاتية نصدر فيها عن اهواء انفسنا وما يلائم طبائعنا وامزجتنا . ونترك حقائقها للعلماء يبدئون فيها ويعيدون ويعلمون ويتعلمون ، لا يعنينا من علمهم او لا يكاد يعنينا من علمهم الا اهونه شأناً وايسره خطراً . فالفصول بالقياس الينا هي الاوقات التي نجد فيها الراحة والروح فنرخى ، او نجد فيها العناء والجهد فنسخط ، او نتردد فيها بين ذلك فنسعد حيناً ونشقى حيناً . واعترف بان الصيف هو ابغض فصول السنة إليّ اذا اقمت في مصر ، وهو آثرها عندي واكرمها عليّ اذا عبرت البحر او الصحراء فرقيت الجبل في اوروبا او في لبنان . ذلك اني لا اطيق

القيظ الا في جهـــد جهيد ، وعناء شديد ، ومشقة شاقة تضيق به نفسي ، ويغلق له قلبي ، ويعقد له لساني ، ويضطر له عقلي الى جمـــود منكر لا امـــل معه في تفكير او شيء يشبه التفكير ، ويسوء له خلقي ، او قـل يزداد له خلقي سوءاً فاصبح ثقيل العشرة ، بغيض الصحبة ، رديء المخالطة ، لا اطمئن إلى أحـد ولا يطمئن اليّ أحـــد ، واذا اضطررت الى البقاء في مصر اثناء الصيف فزعت الى القراءة اعتصم بها من سوء الخلق ، واحتمي بها من لقاء الناس ، ولكنها قراءة تمر بالذهن دون أن تترك فيه أثراً كأنها تمرّ بشيء املس صلد لا يستبقي مما يمر بـــه شيئاً ، واذا اضطررت الى البقاء في مصر اثناء الصيف وحيل بيني وبين القراءة ، ولا بد من وقت يحـال فيه بيني وبين القراءة ، حـــين يتعب الذين يقرأون لي سواء تعبت انا ام لم اتعب ، هممت بالفزع الى النوم ، ولكن النوم لا ينفر مني في فصل من فصول السنة كما ينفر مني في فصل الصيف ، وله في الصيف نفور بغيض اشبه شيء بالمزاح الثقيل . فهو يدعوني مغريا ، ويتملقني متحبباً ، حتى اذا اظهرتُ الاستجابة له ، ولى مدبراً وكاد يُسمعني ضحكا ساخراً عريضاً . فاذا استيأست منه واعرضتُ عنه ، اقبل مترضياً وجعل يدور حولي من جميع اقطاري يريـــد ان

يأخذني من هنا وهناك . والغريب اني انخدع له دائماً ، وانه يعرف مني هذا الانخداع فيقبل ويدبر ، ويدنو وينأى ، ويبسم ويعبس ، لا يخلصني منه الا ان يستريح الذين يقرأون لي ، فاذا اقبلت على الكتاب فر النوم فراراً لا رجعة منه كانما الكتاب وقاء من النوم اي وقاء . ومن الناس قوم يقرأون لينامو ولكنني لم اعرف قط كيف يكون الكتاب داعياً للنوم . واذا اضطررت الى البقاء في مصر اثناء الصيف لم اكره شيئاً كما اكره الخروج الى حيث يستنشق الهواء الطلق ويتبرد من شدة القيظ . ذلك لاني واثق بان الاماكن التي يغشاها طلاب الهواء الطلق مزدحمة دائماً ، ولست آمن ان القى فيها من احب ومن لا احب ، فاخشى ان اسوء هذا او ذاك بما يلزمني اثناء الصيف من سوء العشرة وثقل المخالطة . فالصيف بغيض الي في مصر لانه يبغض الي كل شيء ويبغضني الى نفسي ، فاذا عبرت البحر الى اوروبا ، او نفذت من الصحراء الى لبنان ، فالصيف احب فصول العام الي ، وآثرها عندي ، واخفها على نفسي ظلا ، لان قمم الجبال تضفيني من القيظ فتردني الى نفسي وترد نفسي الي وانا مقبل على القراءة في نهم لا اعرف له نظيراً في الفصول الاخرى . واذا القراءة خصبة اي خصب لا اكاد اقرأ الجملة او الفصل حتى تتفتح

لي ابواب من التفكير والحس والشعور ، واذا انا في حاجة الى ان أتحدث حتى أشق على أصحابي ، واذا أنا في حاجة الى أن املي حتى اشق على الذين يكتبون عني . والصيف يفتح لي خارج مصر فنونا من التجارب : يدعوني الى المشي حتى اتعب واتعب من معي ، ويغريني بالانتقال من مكان الى مكان ومن مصطاف الى مصطاف ، ويحبب الي شهود التمثيل والاستماع للغناء والموسيقى ، ولست ابغض في مصر شيئاً كما ابغض الخروج من داري والاختلاف الى الاندية والجلوس في القهوات . ولست احب خارج مصر شيئاً كما احب الخروج من الفندق وشرب القهوة هنا او هناك .

*

فالصيف عندي اذا خرجت من مصر ، فصل الحياة الكاملة الحافلة المليئة ، حياة العقل وحياة الحس وحياة الشعور ، والصيف عندي اذا اقمت في مصر فصل الحياة الراكدة الخامدة التي لا تغني عني ولا عن الناس شيئاً . ولست اعرف عاماً خرجت فيه من مصر اثناء الصيف وعدت فيه الى مصر فارغ اليدين ، وانما انا اخرج من مصر فلا اكاد استقر هنا او هناك حتى يفتح الله علي بكتاب امليه او بكتاب اعده في نفسي لأمليه اذا رجعت ، ذلك الا ان تحول الخطوب الثقال بيني وبين ما تعودت . والذين

ينظرون فيما نشرت من الكتب يجدون اكثرها قد ارخ من قمة جبل او مدينة في السهل الاوروبي . اكثر كتبي بديء او اتم في جبال الالب او في لبنان ، واقلها بديء واتم في القاهرة . ولو استطعت لتمنيت ان تكون الحياة كلها صيفاً وان اقضيها مطوّفاً في اقطار الارض ، وان المّ بمصر بين حين وحين لالقى الاصدقاء والاخلاء ، وادفع الى الناشر هذا الكتاب وذاك واكلف من الاصدقاء من يقوم على تصحيحه حتى تتم اذاعته في الناس ، ولكن هيهات ان تكون الحياة كلها صيفاً ، وهيهات ان انفقها كلها متنقلاً بين الجبال والربى والسهول ، انما الحياة شتاء وربيع علينا ان ننفقها حيث يجتمع المجمع اللغوي والمجمع العلمي المصري ، وحيث يلتقي الناس ليقول بعضهم لبعض ويسمع بعضهم من بعض دون ان ينتفع احد بما يسمع او يقال ، وحيث نلقي المحاضرات او نستمع للمحاضرات ، فلا نكاد نفيد ولا نكاد نستفيد ، ثم صيف وخريف نفرّ فيهما من انفسنا الى انفسنا ، من انفسنا الفارغة الى انفسنا العاملة ، ومن حياتنا التي تقوم على اللغو والعبث ، الى حياتنا التي تقوم على الجد والنشاط .

*

قلت هذا كله لصاحبي ، فابتسم في سخرية ، وقال في

فتور : اقم ما طابت لك الاقامة ، وارحل ما طاب لك الرحيل ، فانت رجل بدوي تُكره على الحضارة اكراهاً ، وانا رجل حضري لا احب النقلة ولا الارتحال . وكلٌ ميسّرٌ لما خُلق له فاحببْ صيفك ودعني ابغض صيفي فلن تغيّرني ولن اغيرك .

١٩٤٨

دَيْن

•

لا خيل عندك تهديها ولا مـال

فليسعد النطق ان لم تسعد الحال

كذلك قال ابو الطيب حين اهدى اليه فاتك ما اهدى اليه من المعروف ، فلم يكافئه الا بالحمد والثناء .

وكذلك هممت ان اقول حين اهدى اليّ لبنان مـا اهدى من المعروف ، ولكن لم البث ان تبينت ان بين ابي الطيب وبيني فرق ما بين الشاعر والكاتب ، احدهما يقول فتحفظ الكتب وتروي الايام ، والآخر يملي فيقرأ الناس ثم ينسون ، وتسمع الايام ثم تنسى ، ويظل ما املى دفيناً في الصحف والاسفار كأن احداً لم يُمْلِهِ ، وكأن أحداً لم يقرأه ، وكأن أحداً لم يلتفت اليه . ومع ذلك فالمعروف الذي اهداه الي لبنان ابقى بقاء ، واعظم نماء ، وابعد اثراً ، وارفع ذكراً ، من ذلك الذي اهداه فاتك الى ابي الطيب .

فقد اهدى فاتك الى ابي الطيب دنانير سرته حين تلقاها ، ثم اختلطت بما كان عنده من مال ، وذهبت فيما ذهب من ماله اثناء حياته او بعد وفاته ، واهدى الي لبنان معروفاً يتصل بالعقل والقلب جميعاً ضنّ به عليّ قوم هم اقرب الي قرابة من لبنان ، وهم اكثر منه حصى ، واوسع منه يداً ، وابعد منه قدرة ، واطول منه باعاً . حتى تمثلت حين انصرف عني مستشار المفوضية اللبنانية بعد ان دعاني باسم حكومته الى بيروت لالقي فيها محاضرة اثناء شهر « الاونسكو » قول الحطيئة :

سيري امامة إن الاكرمين اباً
والاكثرين حصىً من آل شماس

نعم لم ترد الحكومة المصرية ، او لم يخطر لها اني استطيع ان امثلها بين من مثلها في مؤتمر الاونسكو ، وهي تعلم حق العلم ان بين الاونسكو وبيني صلات متصلة واواصر متينة ، واني كنت من خبرائها مرتين في اقل من نصف عام ، واني مثلت مصر في مجلس التعاون الفكري الذي كان يقوم مقام الاونسكو قبل الحرب العالمية الثانية ، انشأته عصبة الامم القديمة كما انشأت الاونسكو عصبة الامم الحديثة .

فكنت خليقاً ان اشهد ، باسم مصر ، مؤتمر الاونسكو

في بيروت ، ولكن الحكومة المصرية ابت الا ان تصانع السياسة في امر لا ينبغي ان تصانع فيه السياسة ، وأصبح ذات يوم فاذا مستشار المفوضية اللبنانية في مصر يطلب الي موعداً ، فاذا تفضل بزيارتي ابلغني ان حكومته تدعوني الى بيروت لاحاضر اثناء شهر الاونسكو في : « اثر الحضارة العربية في الحضارة الاوروبية »

فاقبل الدعوة شاكراً بعد قليل من التردد في اعماق الضمير ، فقد كنت اود لو زرت مؤتمر الاونسكو وحاضرت فيه موفداً من الوطن العزيز ، ولكن الوطن العزيز لم يرد ، او لم يستطع ، او لم يخطر له الامر على بال .

فاسافر الى بيروت ولا اكاد اصعد الى السفينة حتى ارى قنصل لبنان في الاسكندرية يبلغني تحية الوزير وامانيه ، فاتمثل بيت الحطيئة الذي رويته آنفاً .

ولا تكاد السفينة تصل الى بيروت ، حتى ارى مندوباً من وزارة الخارجية اللبنانية اقبل يتلقاني ، باسم الوزير ، ويهدي اليّ تحيته ، فاهبط من السفينة وانا اتمثل بيت الحطيئة الذي رويته آنفاً .

وهذه السيارة تقلني وتقلّ من معي الى افخم فنادق بيروت فننزل فيه احسن منزل واكرمه ، ونلقى فيه خير ما يلقى الضيف من مضيفه من قِرى لا يرضي الحياة المادية

وحدها ، وانما يرضى حياة العقل والقلب والذوق والشعور .

ثم لا اكاد استقر في الفنـــدق حتى تتصل الزيارات ، كلها كريمة وكلها حفية ، واذا انا اجد نفسي في بيئة اخص ما توصف به ، انها تعرف كيف تبذل الحب ، وكيف تهدي العطف ، وكيف تكرم الضيف ، وكيف تأسو القلب المكلوم .

كرامة أصبحُ بها قبل ان يرتفع الضحى ، وكرامة امسي بها قبل ان يقبل الليل ، وتلطّف اغمر به بين ذلك

ويأتي موعد المحاضرة الموعودة ، فسل مـــا شئت عن رفق الحكومة وظرفها ورقتها وعن كريم عنايتهـا وحسن رعايتها ، وسل ما شئت عن تهافت الناس على البطاقات واستباقهم الى الاماكن وازدحامهم في القاعة ومن حولهـا حتى امسى المستمعون لا يحصون بالمئات ، وانما يحصون بالالوف . ليس في ذلك تكثر ولا تمدح ولا غلو ، وانمـا هو الحق الواقع الذي نطقت به الالسنة كلهـــا والصحف كلها ، فتصوّرْ عطفاً يصدر عن هذه الجموع ، وتحية تصدر عن هذه القلوب ، وتصور جواً عشت فيه اثنى عشر يوماً لم اجد فيه الا مودة ومحبة وتلطفاً واينساساً .

والقارىء يعرف اني لم اتحدث قط عن نفسي بهذه اللهجة التي اتحدث بها اليوم ، واني لم اعرف قط اني استحق ان

اشغل نفسي او اشغل الناس بنفسي على هذا النحو ، ولكني مع ذلك اتبسط في هـــذا الحديث كما ترى لا اتحفظ ولا اتحرج لاني احب ان تعرف مصر كيف تلقى لبنان رجلاً من ابنائها ، وكيف اكرمه ، وكيف انزله احسن منزل وتقبله اجمل قبول . فليس غريباً ان ينوء بي هذا المعروف وان يعجزني حمل هذا الجميل ، وان اعرض ما أعرض من امره على المواطنين ليحملوا معي هذا العبء وليعرفوا معي للبنـــان هذا الجميل .

فلبنان لم يكرمني لنفسي فحسب ، وانما اكرمني لاني مصري ، فتحيته موجهة الى مصر ، وجميله مطوق لعنق مصر ، فمن حق مصر ان تعرف هذا الجميل وتقدر هـذه العارفة ، وتعين ابناً من ابنائها على احتمال هذا الدين الذي لا سبيل الى ادائه .

ولا افرغ من المحاضرة الفرنسية التي تحدثت فيها الى اللبنانيين وضيفهم من الاجانب ، حتى تطلب الي محاضرة عربية اتحدث فيها الى اللبنانيين وضيفهم من العرب ، واذا حفاوة بهذه المحاضرة العربية تشبه الحفاوة بتلك المحـــاضرة الفرنسية ... واريد ان اعود الى مصر ، فـلا ابلغ ما اريد الا بعد الجهد كل الجهد والمشقة كل المشقة . ويأبى وزير الخارجية والتربية الوطنية الا ان يختصني بمأدبة يفيض عليّ

فيها من كرمه ووده ، ما عجزت بادق معاني كلمة العجز عن شكره . ثم اغدو الى الطائرة فاذا مندوبه في المطار يودعني ومعه هذه الزهرات التي لا تزال تبتسم في داري الى الآن ، قد صحبنا ارجها في الطائرة وما زال هذا الارج ينشر من حولي مودة وحباً وايناساً ، ويردد في الدار قول الشاعر العربي القديم :

ونكرم ضيفنا ما حلّ فينا ونتبعه الكرامة حيث كانا

فهل ينكر القارىء المصري الذي ورث عن قديمه حسن الشكر وحسن الاعتراف بالجميل ؟

هل ينكر القارىء المصري عليّ ان اتمثل بشعر الحطيئة مرة اخرى حيث يقول :

وان التي نكّبتها عن معاشر
غضاب عليّ ان صددت كما صدوا
اتت آل شماس بن لأي وانما
اتاهم بها الاحلام والحسب العدّ
فان الشقيّ من تعادي صدورهم
وذو الجد من لانوا اليه ومن ودوا
يسوسون احلاماً بعيداً اناتها وان غضبوا جاء الحفيظة والجد
أقِلوا عليهم لا ابا لابيكم
من اللوم او سُدوا المكان الذي سدوا

اولئك قوم ان بنوا احسنوا البنى

وان عاهدوا اوفوا وان عقدوا شدوا

وان كانت النعمى عليهم جزوا بها

وان انعموا لا كدّروها ولا كدوا

وان قال مولاهم على جل حادث

من الدهر رُدّوا بعض احلامكم رَدوا

وقد لامني أفنـــاء سعد عليهم

وما قلت الا بالذي علمت سعدُ .

اما بعد فاني افزع الى المصريين لاشهدهم على ان اخاهم قد لقي من كرم لبنان وعطفه ما يعجز عن اداء حقه ، ويستعينهم على اداء هذا الحق ، وما ارى الا انهم سيفعلون.

واما بعد ، فان من حقي ان اشكو وزير المعارف المصري الى نفسه والى رئيسه والى وطنه ، فقد كنت احب ان تكون الثقافة بمنأى عن السياسة وان يذكر وزراؤنا دائماً قول من قال :

اذا انت تابعت الهوى قادك الهوى

الى بعض ما فيه عليك مقال .

١٩٤٨

شياطين الانس... والجن

•

تستطيع ان تضحك إن كان مزاجك يغريك بالضحك. وتستطيع ان تبكي ان كان مزاجك يدفعك الى البكاء. وتستطيع ان تتوسط بين ذلك ان كنت رجلاً معتدل المزاج. ولكن الشيء الذي ليس فيه شك ولا ينبغي لك ان تضعه موضع البحث او الجدال، هو ان حياة الناس كرة يتقاذفها نوعان من اللاعبين، في اكثر الاحيان!

فاما احد هذين النوعين فهم شياطين الجن الذين لا نراهم ولا نحسهم، وانما نرى آثارهم ونحسها! وهم يستخفون باعمالهم فيلقون الغرور في القلوب، ويشيعون الكبرياء في النفوس، ويملأون الضمائر صلفاً وتيهاً.. واما النوع الاخر من اللاعبين فهم شياطين الانس الذين نستطيع ان نراهم، ونحس اعمالهم وآثارهم، وان تكلفوا التستر والاستخفاء، وهم يستغلون ما يلقى في القلوب من الغرور، وما يشاع

في النفوس من الكبرياء ، وما تفعم به الضمائر من الصلف والتيه ... اولئك يدبرون ويقدرون ، وهؤلاء يعملون وينفذون ، والناس بين اولئك وهؤلاء كرات لا تستقر الا لتنتقل ، ولا تثبت الا لتزول ... وعلى غير هـذا النحو من التفسير يعسر جداً ان تفهم اعمال الناس ، وما يجني بعضهم على بعض من الشر ، وما يدبر بعضهم لبعض من الكيد ، وما يهدي بعضهم الى بعض من النكر والمكروه .

*

يقبل شيطان الجن على « فلان » في خلوة من خلواته ، فيلقي في قلبه انـه أنفذ الناس ذكاء ، وأصدقهم فطنة ، وأبعدهم نظراً ، وأدقهم فهماً ، وأصدقهم حكماً ، وأحدهم شعوراً ، وأرهفهم حساً ، وأصفاهم ذوقاً ، وأفصحهم لساناً ، وهو اذن أجدرهم ان ترتفع به المكانة ، وترقى به المنزلة ، ويقصر عليه الامتياز ، وما يزال به يقلب على هذا الغرور قلبه ظهراً لبطن ، وبطناً لظهر ، حتى يستقر ذلك في ضميره استقراراً ، واذا هو يؤمن بامتيازه ذاك كما يؤمن بطلوع الشمس حين تطلع ، وغروبها حين يجنها الليل ، بل كما يؤمن بأنه إنسان موجود يحس نفسه ويحس غيره ، ويحس ما بينه وبين غيره من الصلات . فهو اذن قد اعدّ اعداداً حسناً

لتتلقاه شياطين الانس فتفعل به الافاعيل . وهو لا يكاد يخرج من خلوته ويلقى الناس حتى يسمع منهم جهرة بعض ما سمع من شياطين الجن خفية ، واذا هو يقبل منهم ما يقولون ويراه قليلاً ويغريهم — عن شعور او عن غير شعور — بان يزيدوه ويزيدوه ، حتى يكون وحيهم الظاهر مطابقاً او مقارباً لذلك الوحي الخفي الذي القته شياطين الجن في روعه منذ قليل !

وقد أغري المسكين بهذا العبث واطمأن اليه ، حتى أصبح به كلفاً ، واليه ساعياً ، وعليه حريصاً ، لا يستلذ النوم الا اذا داعبته فيه احلام الغرور ، ولا يستحب اليقظة الا اذا لاعبته فيها آمال الصلف والتيه . وهو كذلك كرة تقذفها شياطين الجن اثناء الخلوة ، فتتلقاها شياطين الانس اثناء الاجتماع ، ثم تقذفها شياطين الانس اثناء الاجتماع ، فتتلقاها شياطين الجن اثناء الخلوة ، وهو كذلك تعب متعب ، لا يستريح ولا يريح !

ويقبل شيطان الجن على « فلان » في خلوة من خلواته ، فيلقي في قلبه انه ابصر الناس بدقائق السياسة ، واقدرهم على احتمال اثقالها ، وابرعهم في حل مشكلاتها وتيسير معضلاتها ، وأحبهم للشعب وابرّهم به وأعطفهم عليه ، واعرفهم بحاجاته وامهرهم في إرضائها ، وانه من اجل ذلك احق

الناس بالحكم ، بل هو من اجل ذلك ميسَّر للحكم لم ييسَّر لغيره ، وصوله اليه ملائم لطبائع الاشياء ، واستمساكه به بعد الوصول اليه واجب تفرضه الوطنية ويفرضه الخلق ، ويفرضه حق الكفايات الممتازة في الاستئثار بتصريف الامور . ثم لا يكاد يخرج من خلوته حتى تلقاه شياطين الانس فتقول له مثل ما قالت شياطين الجن ، فيحب هذا الحديث الظاهر كما احب ذلك الحديث الخفي ، ويستزيد اولئك وهؤلاء من احاديثهم الرائعة البارعة التي اصبحت عنده اصدق الاحاديث ، لانها تلائم ايمانه بنفسه ، وثقته بتفوقه وامتيازه ، ويقينه بان الله لم يخلق غيره ليدبر أمور الناس ومرافقهم كاحسن ما يمكن ان يكون التدبير . ثم يصبح المسكين كرة تقذفها شياطين الجن لتتلقاها شياطين الانس ، وتقذفها شياطين الانس لتتلقاها شياطين الجن ، وهو من اجل ذلك تعب متعب ، لا يستريح ولا يريح !

وقل مثل ذلك في اصحاب الاقتصاد ، وفي اصحاب المال ، وفيمن شئت من الناس حين ينهضون بالأعباء العامة او يفرغون للأعمال الخاصة . . كلهم كرات بائسة تتقاذفها شياطين الجن وشياطين الانس بما تلقي اليها من زخرف القول وأحاديث الغرور . . !

ولو قد اطلعت هذه الكرات على شياطين الجن والانس

حين يخلو بعضهم الى بعض ، وحين يلقى بعضهم بعضاً ، وحين تنفجر افواههم البشعة عن ضحك مروع من هذه الكرات التي يتقاذفونها عابثين بها ، ساخرين منها ، مزدرين لها ، لجاز ان يثوب الى هذه الكرات شيء من عقل ، وفضل من رشد ، وقليل من صواب ، فتثوب هي الى شيء من التواضع وتتخفف من ثقل الغرور . . ولكن شياطين الجن والانس لا يكتفون بتقاذف هذه الكرات وانما يعبثون بها الواناً من العبث تضحك منه انت ، واضحك منه أنا ، وترى فيه الكرات نفسها الجدّ كل الجد ، والنجح كل النجح ، والامتياز كل الامتياز ! فشياطين الجن والانس لا يكادون يتلقون الكرة من هذه الكرات حتى يقذفوها الى يمين ثم الى شمال ثم الى السماء ، حتى اذا شبعوا من العبث بها دفعوها الى امام ، ليتلقاها الفريق الآخر فيعبث بها مثل ذلك العبث .

وعلى هذا النحو تستطيع أن تفهم سعي الساعين بين رجال السياسة والادب والاقتصاد والمال ، وكيد الكائدين لهم ، ومكر الماكرين بهم ، وتحبب المتحببين اليهم ، وتهالك المتهالكين عليهم ، وتملق الذين يبتغون اليهم الوسائل ويمدون اليهم الاسباب ... ورجال السياسة والادب والاقتصاد والمال يفرحون بهذا كله ويبتهجون له : يرونه آية من آيات

المجد ، ومظهراً من مظاهر الجاه ، ودليلاً من ادلة التفوق والامتياز ، ولكنهم لا يطلعون ولا يرون تلك الافواه البشعة التي تنفجر عن ضحك مروع بشع ، يتلهى به اللاعبون من شياطين الجن والانس جميعاً !

*

فمن يبلغ المؤمنين بانفسهم والراضين عنها ، والمطمئنين الى ما تتيح لهم الظروف من تفوق طارىء وامتياز عارض وتسلط موقوت ، والمغرورين بما ينظم لهم من عقود المدح وما يدبج من فنون الثناء ، والمستيقنين لأن الايام اقبلت عليهم انها لن تدبر عنهم — من يبلغ هؤلاء من رجال السياسة والادب ، والاقتصاد والمال ، أن الدنيا توكل بالناس — وبالضعاف منهم خاصة — شياطين الانس والجن ، يوحي بعضهم الى بعض زخرف القـــول غروراً ، وان الذين ينظمون لهم عقود المدح ويحبرون لهم فنون الثنـــاء ، لا يكاد يخلو بعضهم الى بعض ، ولا يكاد كل واحد منهم يخلو الى نفسه ، حتى يسخروا من عقود المدح التي نظموهـا ، ومن حلل الثناء التي نسجوهـا . ومن الذين حلوا اجيادهم بتلك العقود ، وزينوا اعطافهم بهذه الحلل ؟ !

من يُبلغ المغرورين والمفتونين من رجال السياسة والادب والاقتصاد والمال ، ان الايام تقبل لتدبر ، وتدبر لتقبل ،

وان الرجل الاديب الاريب ، والحازم الرشيد ، هو الذي يضن بنفسه على ان يكون كرة تتقاذفها وتعبث بها شياطين الانس والجن ، وإنما يقبل على الحيـــاة جاداً في العمل ، مؤمنـــاً بالحق ، ساعياً الى الخير ، متواضعاً لا يزدهيه الغرور ، واثقاً لا تنال منه الفتن والمحن ، مستذكراً دائماً ان الله قـــد وعظ الناس فأحسن وعظهم حين قال : « واضربْ لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط بـه نبات الارض فاصبح هشيماً تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدراً . المال والبنون زينة الحياة الدنيـــا ، والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملا » !

١٩٤٨

جموع واحاديث

•

لا يغضب المواطنون الاعزاء ان نشق عليهم في القول ونعنف بهم في الحديث . فقد يجب ان يقال الحق وان لم يبلغ من نفوسهم موضع الرضا . وقد يجب ان يقال الحق وان بلغ من نفوسهم موضع الغضب وأثار في قلوبهم موجدة وغيظاً . والمواطنون الاعزاء قد تعودوا ان يكال لهم المدح كيلا ، ويسال عليهم الثناء هيلا ، حتى رضوا عن انفسهم اعظم الرضا ، وسخطوا على غيرهم اشد السخط ، وناموا ملء جفونهم والاحداث لا تنام ، وعاشوا ساهين لاهين تتخطفهم النوائب وتعبث بهم الخطوب ، فلا يغير ذلك من رأيهم في انفسهم وحياتهم شيئاً ، لانهم قد الفوا الرضا عن انفسهم ، والاطمئنان الى حياتهم ، فاصبح من اعسر العسر ان نخرجهم من هذا الرضا او نزعجهم عن هذا الاطمئنان.. ولا بد مع ذلك من ان يبصّروا بحقائق الامر ، ومن ان

يخرجوا من رضاهم ويزعجوا عن اطمئنانهم ، ويعلموا انهم يعيشون ابغض العيش ويحيون ابشع الحياة ، وان هذا المثل العربي القديم الذي اتخذته عنواناً لهذا الحديث لم يوضع الا لهم ، ولم يضرب الا فيهم ، ولم يصور الا ما دأبوا عليه وتورطوا فيه ، من كلام كثير لا يغني ، وعمل قليل لا يفيد !

ولعل المواطنين الاعزاء قد فطنوا ليومين من ايام الاسبوع الماضي كان احدهما عيد الجهاد والآخر عيد الهجرة . وكان من قبلهما يوم له في حياتهم خطره الخطير وشأنه العظيم ، وهو يوم افتتاح البرلمان !

ولعل المواطنين الاعزاء قد لاحظوا ان هذه الايام الثلاثة قد انقضت كما تنقضي غيرها من ايامهم المتصلة التي يتبع بعضها بعضاً ، ويشبه بعضها بعضاً كما تشبه قطرة الماء قطرة الماء ، حتى كأن ايامهم على اختلافها وتعاقبها يوم واحد .

مضت هذه الايام الثلاثة كما يمضي غيرها من ايامهم : كلام كثير ، وعمل قليل ، واضطراب في غير حركة ، ونشاط في غير انتاج ، وجعجعة في غير طحن ، ورضا بعد ذلك عن النفس ، واطمئنان بعد ذلك الى هذه الحياة المطردة المملة ، التي لا تنفع الناس ولا تنفع اصحابها . والتي لا

تغني عن الناس ولا عن اصحابها شيئاً !

*

كانت رائعة بارعة خطبة العرش التي القاها رئيس الوزراء في البرلمان ، صورت لنا الحياة المصرية كأحسن ما تكون حياة الامم : بحكومة جادة لا تنام ولا تنيم ، وشعب عامل لا يريح ولا يستريح ! وقد رضيت الحكومة عن نفسها فأثنت على نفسها ، ورضي البرلمان عن الحكومة فصفق للحكومة ، وسمع الشعب للحكومة تقول وللبرلمان يصفق ، فرفع الاكتاف وهز الرؤوس ، وترك الخلق للخالق ، واقبل المترفون على ترفهم ينعمون بغير حساب ، واقبل المحرومون على حرمانهم يألمون بغير حساب ، وتذبذب بين اولئك وهؤلاء فريق من اوساط الناس يأكلون في غير شبع ويشربون في غير ري ، وكلهم راض بما كان ، مطمئن لما هو كائن ، مستعد لما سيكون ، واثق بان مصر هي كنانة الله في ارضه ، وهي جنة الدنيا ، وزينة العالم ، وقائدة الشعوب العربية الى المجد المؤثل الذي لا يشبهه مجد ، والفخار الذي لا يدانيه فخار !

وفي اثناء هذا كله ، كان المواطنون يموتون مئات ، ويمرضون مئات ، يتخطفهم هذا الموت الطاريء ، ويصرعهم هذا الموت الطاريء ، ومن حولهم ألوف وألوف يتخطفهم

الموت العـــادي الذي لا يحمله الوباء ، ويصرعهم المرض العادي الذي لا يحمله الوباء ايضاً . وفي اثناء هذا كذلك كانت ملايين من المواطنين تنعم بالجهل الذي يحجب عنها حقائق الحياة ، فلا ترى مـــا هي فيه ، ولا توازن بين حياتها وحياة غيرها من ابناء الاوطان الاخرى ... وكانت هذه الملايين في اثناء ذلك ايضاً تنعم بفقرهـــا الذي يشغلهـــا بالتماس القوت واطعام العيال وكسوتهم ، دون ان تجد ما تسعى اليه ، ولكنه يشغلها على كل حال بذلك عن التفكير في حياتها والموازنة بينها وبين حياة غيرها من ابناء الاوطان الاخرى !

كان هذا كله يحدث في الصحف من يوم الاربعاء الثاني عشر من شهر نوفمبر بينما كان رئيس الوزراء ينبيء البرلمان بما فعلت الحكومة وبما ستفعل ، موفقة في الماضي والمستقبل ، لانقاذ الشعب من الموت والمرض ، ومن الفقر والجهل ، ولتمكين مصر الخالدة المجيدة ، من أن ترفع رأسها العظيم الكريم بين الامم الراقية ، التي لم تبلغ ولن تبلغ ما بلغت مصر من المجد والفخار !

*

« جوع وأحاديث » كما يقول المثل العربي القديم في يوم الاربعاء الثاني عشر من شهر نوفمبر ! و « جوع وأحاديث »

في يوم الخميس الثالث عشر من شهر نوفمبر ، حين استراح الموظفون من العمل احتفالاً بعيد الجهاد الوطني ! وأي احتفال بالجهاد يعدل الراحة لا من الجهاد ، فقد انقضت ايام الجهاد ، ولكن من العمل اليومي اليسير الذي يتيح لهم اجورهم آخر الشهر ؟! وأي احتفال بالجهاد يشبه الحصول على الاجر من غير عمل ، وان كان هناك قوم آخرون تفرض عليهم الراحة احتفالا بالجهاد ، ثم يحرمون أجورهم في ذلك اليوم لأنهم أكرهوا على الراحة احتفالاً بالجهاد !

في ذلك اليوم خطب الخطباء ، وتكلم الزعماء ، وذكرت الثورة ، وأثني على الشهداء ! وفي أثناء هذا كله كان الجيش البريطاني مرابطاً في اماكنه المقسومة له ، لا يحتفل بعيد الجهاد ، لان الجهاد لم يرزأه قتيلا !

و « جوع وأحاديث » يوم الجمعة الأول من شهر المحرم سنة سبع وستين وثلاثمائة والف للهجرة . . في ذلك اليوم كتبت المقالات المدبجة ، والفصول المنمقة ، وأقيمت الحفلات الرائعة ، وذكر المسلمون هذا الحدث الانساني الخطر الذي تغير له التاريخ وهو الهجرة ، وذكروا ما في الهجرة من موعظة وعبرة ! بكى بعضهم وتباكى بعضهم الآخر ، واصطنع سائرهم الوقار فلم يتكلفوا تباكياً ولا بكاء ! ثم لم ينقض يوم الجمعة الا كما تعودت الايام أن تنقضي :

خمود وجمود ، وكسل وركود ، ونوم عميق ، وامعان فيما تعوّد الناس أن يعنوا فيه من هذه الحياة الفارغة التي لا تغني عن الناس ولا عن اصحابها شيئاً !

*

« جوع واحاديث » في هـــذه الايام الثلاثة ، وجوع وأحاديث فيما سبقها وفيما سيتلوها من الايام !

صحف لا تحصى ولا يحصى ما فيها من الكلام ، تصابح الناس وتماسيهم ، وثرثرة لا تحصى في الراديو تصابح الناس وتماسيهم ، وهراء كثير لا يحصى يشغل الناس عن انفسهم وعن حياتهم ، وعن آمالهم وعن آلامهم ، لا يصرفهم عنه النوم ، بل هم اذا ناموا وألمت بهم الأحلام ، لم يخرجوا من هذا الهراء !

جوع . . وأحاديث ! فنحن افصح الناس كلاماً ، وارفع الناس صوتاً ، وابرع الناس في الحركات والتمثيل . ونحن مع ذلك مضرب المثل في البؤس ، والجهل ، والمرض والتهافت في الموت ، كما تتهافت الفراش في النار ! والله يعزي النـــاس عن آلامهم ، ويسليهم عن مصائبهم بالعمل الذي يزيل الآلام ويكشف المصائب ، كما يسليهم بالقول الذي لا يمحو ألماً ، ولا يكشف ضراً ، ولا يجلي خطباً ، وانما يجعل اصحابه ضحكة الضاحكين ، وهزء الهازئين ! !

فلنبتهل الى الله في ان يبرئنا من علة الكلام الكثير ، فلعلنا ان برئنا من هـــذه العلة ان نجد العزاء عن آلامنا وكوارثنا ، في العمل الذي يزيل الآلام ، ويمحو الكوارث ، ويجلي الغمرات !

١٩٤٧

فهرست

	صفحة
بين الادب والسياسة : جد وهزل	٥
أدب الصيف	٢٠
حوار في الأدب	٣٢
عيـــد	٤٥
طيف	٥٤
ضمير حائر	٦٥
الضمائر القلقة	٧٦
في الذوق	٨٦
خوف	٩٢
النفوس القلقة	٩٩
الوسائل والغايات	١٠٦
لبنـــان	١١٤

صفحة

الصيف	١٢٤
دَيْن	١٣٣
شياطين الانس ... والجن	١٤٠
جوع وأحاديث	١٤٧

صدر عن دار العلم للملايين

•

		ق. ل
منهج البحث في الادب واللغة	ترجمة الدكتور محمد مندور	١٥٠
على المحك	للاستاذ مارون عبود	٤٠٠
مجددون ومجترون	〃 〃 〃	٣٠٠
اشباح ورموز	〃 〃 〃	١٥٠
هل الادباء بشر	للدكتور اسحق موسى الحسيني	١٠٠
عبدالله بن المعتز	للاستاذ عبدالعزيز سيد الاهل	٣٠٠
عبقرية ابي تمام	〃 〃 〃 〃 〃	١٥٠
كيف تغلب الانسان على الألم	للدكتور نقولا فياض	٢٠٠
دنيا واديان	〃 〃 〃	١٥٠

انتهى طبع هذا الكتاب على

مطبعة دار الكتب

بيروت

٥٢/١١/١٦٥

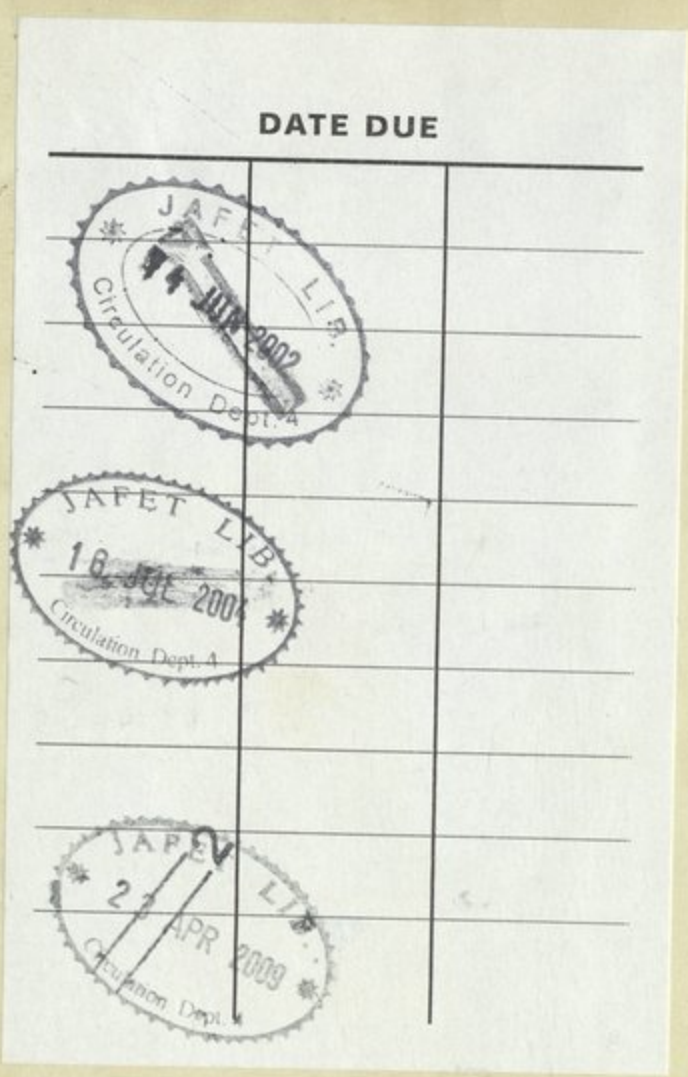

DATE DUE

JAFET LIB.
JUN 2002
Circulation Dept. 4

JAFET LIB.
16 JUL 2004
Circulation Dept. 4

JAFET LIB.
2 APR 2009
Circulation Dept. 4

حسين ،طه
بين بين
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038329